

سيرة مؤسدة

بدأت بحق في سيرة الكواكبي فرأيت أن أعرض في تاريخ ، حلب ،
لأعرف الكواكبي من المدينة التي نمت وأنشأت ، وأعرف من تواريخها
وأحوالها أين تقع المزية التي كان لها الفضل في نشأتها وتفكيره والاتجاه به
إلى وجهة حياته .

ويعلم قراء العربية أن مدينة حلب إحدى المدن المخطومة من الناحية
التاريخية بين مدن الشرق العربي القريب ، ونعني بالمخطومة ، معناه
في اصطلاح العرف الحديث ، ومعناها في هذا الاصطلاح أنها مدينة
لقيت من تخلصون تاريخها من أبنائها والتنازين به من العرب وغير
العرب . فكتبوا عن حوادثها وعهودها ومعادها وأعلامها وضيعة
بليتها وخرات أرضها ما لم ينفذ نظيره لغير القليل من مدن العالم
القديم . فلم يفهم من تسجيلاتها شيء توافر مدينة غيرها . وما ظانها
في هذا السبب فهو الذي فأت المارشحين الأقباط أن يتصوروا إليه
على عادتهم أن تسجيلاتهم ومحفوفاتهم عن كل مدينة وكل زمن ، لا حيلة
فيه للتواريخ الحديث غير إتمام الرواية وأخير بالتفسير والتفسير .

إلا أنني رجعت إلى تاريخها في هذه المرة لأعرف ، الكواكبي ، غاية
المعرفة التي تستطيع من العلم بموطنه ومناصبه . فلم أفرغ من مرجع
واحد حتى فمكت في المزية التي بحثت عنها وبدأ لي أنها كافية وحدها ولو لم
تبلغها مزياء أخرى ! .

حلب مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم ، ولم تنفصل قط
عن حوادثه وأطواره ، كأنها المرقب الذي تنعكس فيه الأرساد فلا تحق
فيه خافية ، ولا ينزل بينها عن دابة ولا ناقة .

سيرته أن نغرى بالكتابة فيها لأنها تطيق ، محكم التراجم هذه الفشة من
نوابغ الدعاة .

تميات له البيضة وتميات له الزمن . وتميات له الرسالة . فلا حاجة
بكتاب السيرة إلى غير الإشارة القريبة والدلالة العابرة . وهناك
فانظر . . . ها هو ذا صاحب الدعوة قائماً حيث نرى من حيث
نغرت إليه .

ولو لم تكن للسيرة من مرجياتها غير هذا الإغراء لكان ذلك حسبها
من وجوب عند كاتبها وقارئها ، ولكنها سيرة يوجبها الفن للفن ويوجبها
التاريخ للتاريخ ويوجبها علينا أنها حق لصاحبها وقدره صالحه من يقتدى به
في دعوته الباقية . . .

وإن لها بقية متجددة بين أبناء اللسان العربي في كل جيل .

عباس محمود العقاد

الكتاب الأول

مدينة

(١) مدينة عربية عريقة :

ولـ عبد الرحمن الكواكبي ونشأ في مدينة عربية عريقة . هي
حلب النباه .

وقد عرفت المدينة باسمها هذا - مع بعض التصحيف - منذ القرن
الثالث عشر قبل الميلاد . فورد اسمها في أنجير رمسيس الأكبر .
وورد بن أنجير حمورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد . وورد
في أحمل شلمنصر (٨٥٨ - ٨٢٤) ... وورد خلال هذه القرون في
كثير من الحفريات والآثار التي تتصل بتواريخ الحبشيين والعماليق من
الشمال إلى الجنوب .

ولا يعرف على التحقين مبدأ بنائها وطلاق هذا الاسم عنها . ولكنها -
كيفما كانت التواريخ المروية - أقدم ولا شك من كل عهد وردت أخباره
في تلك الروايات : لأن قديم مدينة في موقعها ضرورة أحسن بالتصديق من
أسانيد المؤرخين وأساطير الرواة . لأنها في مكان توافر فيه كل شرط من
شروط المدينة العامرة من خصب التربة وسعة مكان واتصال الطريق بين
مواقع العمران ، قوافل التجارة ومسالك الفانحين أو معازل المتحصنين
المدافعين . ولا غنى عن مينة في مكانها للاشباع بموارد الزرع والبيع
والشراء ، وتنظيم الإدارة الحكومية في جوارها ، وتبادل المعاملات فيما
حولها ، وتأمين المواصلات بينها على تعدد الحكومات أو وحدتها .

فالمدينة التي ينبغي أن تقوم في هذا المكان حفيظة تاريخية غنية عن
سجلات التاريخ . وقد تغطي بعض المؤرخين في بيان السنين أو الفترة التي
بُنيت فيها ، لأنه يخلط بين بنائها الأخير بالنسبة إليه وبنائها الأول قبل ذلك
بقرون ، إذ كانت موقعا معرضا فيها مضي للزلازل معرضا للغارات

والمنازعات ، يبنى ويهدم آونة بعد أخرى ولكنه يسرع إلى العمار ولا يطول عليه الإهمال . وقد فطن بعض المؤرخين إلى ذلك فها نقله ابن شداد حيث يقول : « ... وهذا يدل على أن سلوقوس بن حلب مرة ثانية وكانت خربت بعد بناء بلوكروش ، فجدد بناءها سلوقوس . فإن بين المحدثين ما يزيد على ألف ومائتي سنة » (١) .

ومما يدعو إلى اللبس في تصحيح أقوال المؤرخين عنها أنها سميت بأسماء أخرى أو ذكرت باسم « قنسرين » على سبيل تظليل والمجاورة للتعميم بدل التخصيص . فمن سمائها عند اليونان اسم « بيرة » الذي أطلقوه عليها كعادتهم في إطلاق أسماء بلادهم على المدن التي يدخلونها . ولكن اسم « حلب » أقدم من هذه الأسماء جميعاً وقرب إلى طبيعة المكان وإلى اللون الذي سميت من أجله « الشب » وهو لون أوصفا ولون الخوار الذي تغطي به مبانيها .

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان :

« حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء ، وهي قصبة جند قنسرين في أيامنا هذه . وحلب في اللغة ، مصدر قولك : حلبت أحلب حياً قال الزجاجي : سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدق به . فيقول الفقراء : حلب حلب ، فمن به » .

قال ياقوت : « وهذا فيه نظر ، لأن إبراهيم عليه السلام وأهل الشام في أيامه لم يكونوا عرباً ، إنما عربية في ولد إيت إسماعيل عليه السلام وقمحطان . على أن لإبراهيم في قلعة حلب مقامين يزاوذا إلى الآن . فإن كان لهذه اللقطة أصل في العبرانية أو السريانية لجاز ذلك . لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا بفارقه إلا بمعجمة يسيرة كقولهم : (كهنم) في جهنم ... » .

(١) قدر المنتخب في تاريخ ملكة حلب .

إلى أن قال : « وذكر آخرون في سبب عمارة حلب أن العمانيق استولوا على البلاد الشامية وتماشروها بينهم استوطن ملوكهم مدينة عمان ومدينة أربعا القور ودمدم الناس الجبارين ، وكانت قنسرين مدينة عمارة ولم يكن يوجد منه قنسرين وإنما كان اسمها صوباً ... » .

وقد أساب ياقوت في ملاحظته الأولى ، لأن لفظة إبراهيم عليه السلام لم تكن عربية ، وه تكن العربية كما تكلمها أهلها بعد ذلك معروفة في عصره ، ولكنه أسب كذلك في ملاحظته الثانية إذ خطر له تشابه بين الفاظ اللغات والهجاء التي شاع استعمالها في بعضاء حلب قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون . فإن الآرامية - عربية ذلك العصر - قرية يجمع لحياتها إلى العربية الحديثة ، وتفيد كلمة « حلب » في معنى البيضاء . ومنه لون البين الحليب . بل يرجع الكثيرون أن اسم « صوباً » الذي ذكر ياقوت أنه كان يطلق على قنسرين إنما يعني « الصبية » التي تقرب من النسبة في لفظها ومعناها ، وكانت حلب توصف بالشباب وتشتهر بلصقة أحياناً فيكتفى بها من يذكرونها دون تسميتها . وورد اسم مدينة صوباً غير مرة في أسفار العهد القديم فرجع أناس من مفسريه أنها حلب ورجح الآخرون أنها قنسرين ، ولا يعد إطلاق الاسم لحياء على المكثين .

على أن الأمر ثبت من وقائع التاريخ أن الآراميين سكنوا هذه البقاع قبل عهد إبراهيم عليه السلام ، وأن المدينة وما جاورها كانت عربية بالمعنى الذي نبحث فيه عن أصل العربية القديم ولا نقف فيه عند تاريخها الأخير . وقد ثبت أن أسلاف الآراميين جلبوا على هذه البقاع في عهد الملك سراجوان قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرناً ، ولم تكن هناك لغة أخرى يفيد فيها الحلب معنى البيضاء غير الأصول العربية الأولى .

(٢) ومدينة عامرة :

والمدينة بموقعها وقدم عهدها مدينة حل وترحال . يقيم فيها من يقيم وينتقل عليها من ينصرفون في شئون معاشهم من أبنائها وحسب أبنائها . تعددت فيها أسباب المعاش من زراعة وصناعة وتجارة فلم تنحصر في مورد واحد من هذه الموارد . وكتب رسل Russell - وهو من أقاموا فيها حقبة من القرن الثامن عشر - مجلدا ضخما عن تاريخها الطبيعي فأحصى لها ما ينظر أن يجمع في مدينة واحدة من محاصيل الغلات والفواكه والخضر والأبازير والرياحين ، ومن أنواع النوايا والماشية والطيور والسمك ، ومن خامات الصناعة للملابس والألبسة ومرافق المعيشة . فصنع فيها ما يوجزه الكتب العرب حين يحمل الوصف عن أنها لم يقبل أنها مدينة بحيرات .

وتكلم عنها ملطرون صاحب الجغرافية العالمية التي ترجمتها رفاعة الطهطاوي قبل عصر الكواكبي فقال بأسلوبه الذي نقله بحرفه : « ولنبعث الآن عن أشهر الأماكن بتدوين بالقسم الذي يجوار الفرات وهو إمالة حلب فنقول : إن المدينة السماة بهذا الاسم هي كما في كتاب البرزنجي ، برة القديمة . وهي أعظم جميع المدن العثمانية في آسيا - سواء بتأديب أهلها أو بعلومها وكثرة أمواتها وغناها . وظن بعضهم أن أهلها لا يزيدون عن مائة وخمسين ألف نفس . ومبانيها من الحجر تفتت كما أن طرقها السلطانية ملطلة به أيضا ، ومنظرها عجيب لما فيها من أشجار السرو المقلنة الأوراق المبينة بالكلية لآثارها البيضاء . فالحسن اختلاف كل من الجنتين بصاحبه ! وبها قاربقات القطن والحرير على حالة زاهية ، وإليها تأتي القوافل العظيمة من بغداد والبصرة فتحمل إليها بضائع بلاد العجم والهند . وبالجملية مدينة حلب الشهيرة ما يسمي المتأخر (تلعلر) ورياضها مزروعة بالغنم والزيتون كثيرا المخطلة . »

وملطرون يفهم بالتقدير الذي سماء فلما أن سكانها لا يزيدون على

مائة وخمسين ألف نسمة . ولكن الرحالة والخبراء من الأوروبيين الذين أقاموا بها بين القرن السابع عشر والثامن عشر يبلغون بتعدادها نحو سبعة مائة ألف نسمة ، ويقول دريفو D'Arvieux الذي كان قنصلا فرنسيا في المدينة بين سنة ١٦٧٢ وسنة ١٦٨٦ إن الطامعون أهلكت من أهلها نحو مائة ألف ولم يبق من طرقي الأسواق فيها بقية سكانها . وكان بعض المؤرخين لما يعرفون في تغيير سكانها على إحصاء الحق في الكتابات السجينة أو على مقادير الأطعمة اليومية التي تستهلك فيها . لا يضطرونهم إلى الظن مع قلة الإحصاءات الرسمية . فراحوا في حسابهم بين ثلثمائة ألف واربعمائة ألف في عاصمة التقديرات إلى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يتبين من الإحصاءات الأخيرة أنهم لم يخطئوا التقدير .

...

(٣) ومدينة اجتماعية :

وهي مدينة يقوم عمرها على مجتمع واضح ، على خلاف المدن العابرة التي يقوم عمرانها على كثرة السكان بغير اختلاف يذكر في كيانها الاجتماعي أو تركيب الصفات التي تتألف منها المجتمعات السياسية .

والسكان فيها كثيرون ، ولكنهم أصحاب مرافق وأعمال لا تتأثر بها صناعة واحدة . ولا تفرد الصناعة واحدة بينهم بنسب واحدة على وثيرة واحدة ، سواء اشتغلا بالتجارة التي يعمل فيها تجار المحل وقاسر القوافل وقاسر التصدير والتوريد ، أو اشتغلوا بالزراعة التي يعمل فيها زارع الحقل وزارع البساتين وزراع الخضر والأشجار ، أو اشتغلوا بالحرف اليدوية التي يعمل فيها النساجون والنجارون والحديدون والمختصون بنون البناء وتعمير البيوت .

وفيها عسا هذا التركيب الاقتصادي يتنوع المجتمع في المدينة باختلاف المذاهب والأجناس من أقدم الأزمنة قبل الإسلام وبعد الإسلام . وقلما يعرف مذهب من مذاهب الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو مذاهب

الديانات المسيحية لا تقوم له بيعة في حلب أو مزار مشهور مقدس عند أتباعه ، وهي تنسج لأصعب هذه المقادير من العرب وترك والكردي والأرمن والأوربيين . يتفهمون أحياناً بلغة واحدة مشتركة أو يتفهمون بجميع هذه اللغات كلما تيسر لأحدهم فهم لغة أخرى غير لغته التي ولد عليها .

ولم تزل المدينة منذ قدم عرضة لمنازعات الدولة بين العرب والإغريق ، أو بين العرب والروم . أو بين المسلمين والمسيحيين ، أو بين أصحاب العقائد في الديانة الواحدة واللسان الواحد . وهي حالة لا تتكرر طويلاً إلا تركت لها أثراً لا يمحى من التوفيق بينهما ، فمن أثرها أن تريد شعور الإنسان بعقيدته وحرصه على شعائره ومعالم دينه ، ومن أثرها أن تروى نفسه على حسن المعاملة بينه وبين أهل جوارحه من المخلفين له في شعوره أو تفكيره . وهي رياضة عالية تعتدل فتبني على أحسنها في الساحة الدينية ورحابة الصدر ودمائة الخلق وكياسة العشرة والمجاهلة . وقد ينحس بها الفلج إلى مناسخ من الخلط بين العفاسات والشعائر لا يعود في بيته لم تتعرض لتلك التجارب التاريخية . لقد روى دارفيو المتقدم ذكره أنه وجد في عين طاب « سيناب » طائفة تسمى « (كيزوكيز) » أي النصف والنصف . يصلون في المساجد ويحفظون القرآن ويلقون المصحف نصفاً في أعناق أطفالهم ويروجون تعبد هؤلاء الأطفال وتقريب القرابين في المعابد المسيحية وتذهب إلى كرمي الاعتراف وإقامة الصلوات في بيوت الولاة وسيد القياصرة .

...

ومن نتائج الائتلاف في اجتماع أن تتأصل في العادات خصال التعاون الاجتماعي ، فتصبح المدينة العائرة معبرة قادرة على التعبير ويكسب أبناءها قدرة على تجديد عمراتها بعد الكوارث التي تنالها كما تنالها من المدن على أيدي الفاتحين أو بفعل الزلازل والأوبئة التي كانت تنتشر في الشرق والغرب فلا تسلم منها مدينة كثيرة الورد والطراق يخرجون منها ويشربون إليها بغير رقابة صحية على التواعد العلمية . وقد تحمكت حلب .

من تجديد عمراتها واستئناف علاقاتها ومعاملاتها مرات في مدى التاريخ المعروف منذ ثلاثة آلاف سنة ، واستطاعت ذلك أربع مرات منذ القرون الوسطى إلى اليوم . ويشير بقوت الحموى إلى خصلة التعبير والتأثير في أهلها بقول : « لأهلها غلبة باصلاح أنفسهم وتثمين الأموال . قل ما قرئ من نشأ من لم يتقبل أخلاق آبائه في مثل ذلك . فلذلك غلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة وينوارونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان ... »

...

(٤) مدينة سياسية :

والمدينة الاجتماعية على هذه الصفة مدينة سياسية باختيارها بدو تنساق إليه من ضرورات سيرها وإصلاحها ، فلا يسع إنساناً يقيم فيها أن يغفل عن السياسة التي تديرها ولا عن أحوالها التي تستقيم عليها مشورتها المشيكة أو يعزب الخلل من جانبها ، وربما حالت السيطرة المسببة دون إطلاق الأنس والأفلام في أحاديث هذه السياسة ، ولكن المجالس التي تنور فيها الأحاديث بين أهلها لا تلبث أن تخلق لها منادح من القول الباح في باب نقد الاجتماع ولو قصرته على نقد الأحوال العامة وآداب العرف الشمة ولم تزد فيه على الخبز إلى الأيام التي كانت تخلد من عيوب هذه الأمة . أو على الفناء والذكرى لمن كانوا يسوسون الأمور سياسة لا يدركها السلام .

بالرسل في تاريخه اضيعى لمدينة حلب ، وهو يسمى المسلمين بالترك على عادة الأوربيين في زمنه : « إنهم على احتجاجهم في مسائل السياسة لا يقل عنهم إنهم سكوت صامتون . فأنهم يفيضون الحديث عن مسائل الديانة والآداب ومساوئ اللخ والترف ، وشيوع الرضاة في البواوين ، وربما تحفظوا في الكلام على أخطاء الحكومة الحاضرة . ولكنهم ينتحون على الأخطاء الماضية بغير موادة ، وسواء كان يجري الحديث

على أنه المسائل أو على أشباهها من المسائل الخلافية تراهم يحتلون في مساجلاتهم ولا يطول الحوار بينهم دون أن يتطرق إليه الغضب حتى يفصل فيه صاحب الدار برأيه ، إن كان من خرى الصدارة ، فيميل الأكثرون إلى الرأي الذي أبدا . . .

وإذا قيل هذا عن أواخر القرن الثامن عشر فالحالة السياسية في غير هذه الحقبة المظلمة لا تحتاج إلى بيان .

• • •

(٥) ومدينة متصلة :

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن المدينة التي لها هذه العمارة وهذه العلاقات الاجتماعية على ملتقى الطرق المعبورة في القسارات الثلاث لا تنقطع عن العالم في عهد من عهودها ، ولن يقطع العالم عنها .

إلا أن العلامات المحسوسة أوضح من الأحوال المفهومة في الدلالة على تمكن هذه الصلة وشدة الحاجة إليها . فمن هذه العلامات أن نقل الأخبار بالمشاعل والمصاييح كان معروفاً في حلب قبل مئة وثلاثين قرناً كما يرى من ألواح « مري » الأثرية التي كشفت بحوارها . أما في المصبور الأخيرة فلم تخل حلب قط من الوسائل السريعة للاتصال أو نقل الأخبار ، وحيثما وجدت ، وسبابة أسرع من سواها في قطر من الأقطار الثانية لم تثبت أن تصل إلى حلب بعد قليل رأت يمتن الحلييون في استخدامها وتحسينها لزيادة السرعة فيها ، فاشتهرت بيلجأ إليها السريعة التي تعرفها في وادي النيل باسم الهجين ، واحتشد أصحاب القوافل بها في توليدها بين العربية والتركانية لتزويدها أحسن الصفات من فصائلها الممتازة ، وانتظم فيها بريد الحسام الزاجل وهو أسرع بريد عرفه الناس على المسافات البعيدة قبيل استخدام البرق والبخار . ولكنهم في الخطوط التي تمتد من حلب وإليها محتاطون لعوائق الطريق فيمننون أقدام الحمام في الخلل لينعز بالمرطبة في الجوف فلا يستدرجه

الشعور بالعطش إلى الماء فيقطع عن السفر أو ينفذ بين أيدي المترصدين في الطريق .

• • •

(٦) ومدينة حساسة :

وهذه العوامل المتأصلة جميعاً قد بقيت إلى عصر الذي نشأ فيه الكواكبي وعاش فيه بن منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . بل كانت كذب على حالة من النشوء والتحفز توصف « بالحساسية » المفرطة التي تضاعف انتباه المنتهين إليها على غير أمثال في صائر العصور .

كانت مدينة حلب قبل مولده بسنوات جزءاً من العالم العربي حتى كان يجمع الشام ولسطين وصرفاً من العراق وجزيرة العربية في نفق واحد ، وظلت كذلك بضع سنوات حتى أعيدت إلى الدولة العثمانية في سنة ١٨٤٠ بعد تدخل الدول الأوروبية في حروب إبراهيم باشا والسلطان عبد الحميد .

وكانت فتنة الأرمن وحملة لبنان وغارات حدود بين العرب والترك في العراق مغلا شاعلا لأبناء حلب على الخصوص . لأنها المدينة التي يصيبها كل عطل ويرتد إليها كل اضطراب .

وكانت مسائل الامتيازات الأجنبية تضار من يوم في أوربة إلى الشرق أعيناً مع ما يقبها من مسائل التشريع والإدارة التي تقرب بين الطوائف والأجناس في كل بقعة من بقاع الدولة التركية .

وكانت هذه الدولة تقدم خطوة وتنكص على أعقابها خطوتين في طريق الحكم الثنائي والإدارة المعاصرة واستبدال النظم الحديثة بالتقليد البالية التي جمدت عليها منذ قرون .

وكانت قناة السويس تفتح ، ومراكز الشركات تتحول من حلب

شيئاً فشيئاً إلى القارة الأوروبية أو إلى إسواطير الهند وإيران ومراقى
البحرين الأحمر والأبيض على طول الطريق .

كان كل عامل من أعمال الحياة الاجتماعية إلى حلب يتحرك
وبقته ويبلغ به الانتباه حد الحساسية ، بل حد الإفراط في الحساسية
حين نشأ الكواكبي في هذه الحقبة المتوفرة ، ووكّل إليه انفسه أن
يكون لها لسان حال ، فاستجاب لها في بيته من حيث يستجيب أمثاله
من الرجال .

العصر

كيف نشأ الكواكبي في هذا العصر ؟

كيف لم ينشأ الكواكبي في هذا العصر ؟

سؤالان لا يتردد المؤرخ بينهما . بعد ما تقدم . أيهما أدق بالتعقيب
وأيهما أدعى إلى الاستغراب . فإن حوادث العصر وحوادث السيرة
الكواكبية تشير أن كليهما إلى الأخرى متقابلين كما يتقابل العلل
المتلازمان .

ولد الكواكبي حول منتصف القرن التاسع عشر . وتوفي بعد
خاتمه بسنتين . فحياته على وجه التقريب هي النصف الثاني من القرن
التاسع عشر في ملتهام بطلائع القرن العشرين . وهذه - حقبة من حجب
التاريخ الحديث بلوح عليها كآتها نشاط من عقال . فكل شيء فيه
ينفر من الجسود والركود ويتحفز للحركة والثوب إلى التغيير .

كان هذا النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، في القارة
الأوروبية ، امتداداً لمصر الكشوف العلمية والزعة الفكرية إلى الغرب
على القدم . وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى التغيير .
حيثما وجد الطريق . تمحضت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق
وأدعاهها إلى الثورة والانقلاب . ولا تطيل في شرح المذاهب الخاصة
بتلك الحقبة لو أنني تعد من ولاندها . نتائجها ، فإننا نطوي الكف عن
خمس منها فلا نستكثر بعدها أن يحدث في بقية القرن التاسع عشر كل
ما حدث فيها من عظام الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

في بقية القرن التاسع عشر شاع مذهب داروين عن التطور وتنازع
البقاء : مذهب كارل ماركس عن رأس المال . ومذهب نيتشه عن

« السوبرمان » أو الإنسان الأعلى ، ومذهب المدرسة الطبيعية عن حرية الفن والأدب . ومذهب الديمقراطية عن الحكومة الشعبية : وكل مذهب منها لا يستقر حيث ظهر على حال من أحوال الجور والفساد عن انقضاء والاستسلام .

ووصلت فتوح انعم إلى السوق والطريق . بل وصلت إلى الجهلاء الأملين أهول وأضخم من صورتها التي وصلت بها إلى العلماء الناصحين . سمعوا الجراموفون الحامى « فقالوا أن الإنسان ينطق الجهاد .

وسمعوا عن البرق بأسلاكه وغير أسلاكه فجحد لهم خبر الرعدة المسخرين في نقل الأسرار بين السماء والأرض . وبين المشرقين والمغربين . وسمعوا صوت الآتف بعد أن شهدوا الضرورة التي يرسى بها لم شعاع الشمس فكانوا يلحنونها بالخوارق والمعجزات .

وكبرت في أيامهم غفرتات الشمس . فأصحت المطبعة والحرية والبتدية أشبهاً تطول الرعدة بعد أن كانت في الحقبة الغابرة الأعيب أطفالاً أو أطفالا تتعثر بين اليهود والحجور .

كذلك كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدان الفكر والمصاحفة .

أمر ميدان العمل والحياة العامة فجمع ما يقال فيه أنه يتلخص في كلمتين ترددان بلسان الناس أو : أن المال في كماله خالصة أو مغلوقة . ومتقدمة أو متخلفة . وحررة ناهضة أو متأدية للحرية والبهضة : وهما : الحرية وحق الأمة .

في البلاد الإنجليزية كان سلطان الموك يتقيد ويتبعه سلطان السادة النبلاء إلى القيد : ولم تهلأ فيها صيحة المطالبة بالمشاركة في الحكومة بين أصحاب الأموال وجماعات العمال . فكان العهد الثاني بعد منتصف القرن فاتحة العهد الذي برز منه الأحرار وتمهدت فيه السبيل لطوائف العمال .

وفي البلاد الفرنسية فضت حرب الشعب على لامبراطورية ونحوات بالحكم إلى النظام الجمهورى على أساس المبادئ التي أعلنها الثورة وتجاوزت بها أصداء العالم . وفي مبادئ الحرية والإخاء والمساواة .

وفي البلاد الألمانية ظفرت القومية الملتفة بالوحدة التي كانت تشدها واجتمعت الولايات في كانت مرطن للغيرين من الشعب . والجنوب . ومن الشرق والغرب . فأصبحت نبرة القارة التي يحددها الغيرون ! .

وفي البلاد الإيطالية تجمعت تلك المفردات من قضايا العصر كده . ومنها قضية الاستقلال ، وقضية الوحدة ، وقضية السلطة الدينية . وقضية الحكومة الشعبية : فكانت . وهي تضطرب بجميع هذه القضايا . كأنها حلقة الوسطى بين الغرب والشرق . وبين القدرة الغلبة والقدرات التي تشكو الغلبة عنها . فثار إيطالي . قبل منتصف ثوبه تسترد الحرية من الدول ثلاث . التي تنازعها وهي النمسا وروسيا وألمانيا .

وعند منتصف القرن ثارت على أممها اثنين تنازعوها وفريقا أو قسب وأبناءها وجمعت ثملها في ظل راية الوحدة على وجه . وفصلت الرضية الإيطالية في قضية السلطة الدينية كما فصلت في قضية الملك والدولة . ثم فصلت في قضية الحكم فأقامتها على قواعد دينية شعبية . ولم ينتفس القرن حتى دخلت في سبيل الاستعمار طامعة في أسلاب غيرها بعد أن كانت مطمعة للمصادرين عليها من الغريب عنها ومن أبنائها .

وقد توحدت إيطاليا بعد مجهودات كثيرة تفرقت مساعيها وتفتت قسبها في النهاية . فكان الوطنيون المهاجرون يعملون جميعاً على توحيدها والنهوض بها إلى مصاف الدول العظمى ويأفون أن تكون بين جيرانها أقل منهم شأنًا وأصغر منهم قدرًا في مجال العلاقات الدولية : وهي

أعرق منهن ماضياً وتقدم ثقافة وموطن اللغة الذي نهت منه لغات اللاتين واقتبست منه سائر اللغات في أمم الحضارة ... إلا أنهم - مع هذا الانشقاق في الغاية - تفرقوا في الوسائل والمعايير السياسية ، فأرادها فريق منهم « جمهورية حرة » تنال حريتها وتنتشر مبادئ الحرية لغيرها . وعلى رأس هؤلاء المهادنين حكيم إيطاليا ورائدها الأول يوسف ماسيني . مؤسس « إيطاليا الفتاة » ثم مؤسس « أوربة الفتاة » إيانا منه بأن الحرية في القارة الأوروبية شرط لا غنى عنه لدوام الحرية في بلاده .

وفريق آخرون يريدون بقاء الملكية على عرش واحد . أو يسعون ببقائها إلى سين دينا ثنياً الفرصة لإقامة الجمهورية . وعلى رأس هؤلاء كفسور الزعيم الوزير الذي كان يخالف الفريق الأول في سياسة التحالف الدولية ويتبع بإرسال الجيوش إلى المغرب لمخافة روسيا ومعاونة تركيا والمجملين . وفرنسا أملاً في تأييد الدولتين الأخيرتين له في مساهمة الدولية ورأساً من تأييد روسيا القيصيرية لغضبة من قضائها الاستقلال والحرية على النظم الدولية العجينة .

ويتوسط بين الفريقين فريق غاريبالدي الذي كان يستعير بالكتائب المنتطوعة كما كان يستعين بالجماعات السرية من قبيل جماعة الفحاميين « الكربوناري » ولا يرفض التعاون مع « إيطاليا الفتاة » كلما اتفقت الحملة على خصم واحد من خصومه وخصومها . ولكنه يرجس من التحالفات الدولية ولا يذعن بجدواها ويكاد يقطع بحرهم خوفاً من مغرم « انقباضة » التي تجرور على حقوق الدولة الثالثة كمر تجرور على أقاليمها ومواردها . ولا تعرف وسيلة من وسائل الأمم في جهادها لم يتوصل بها فريق من هؤلاء المهادنين ولم يتصل خبرها بطلاب الحرية في البلاد الشرقية . لانتشار الإيطاليين على شواطئ البحرين الأبيض والأحمر ، وإقامتهم على طريق التجارة القديمة بين الهند والبنديقة وجنوه . واشترائهم من قبل الساسة والزعماء معاً في حررب التجارة العثمانية .

ولابد من الالتباه السبق إلى دخائل السياسة اردوجة التي أملاها على الثورة الإيطالية وضعها الجلب بعد الانشقاق على توحيدها . فهي - من جهة - دولة أوروبية طامحة إلى مساواة الدول التي سبقها في حلبة اقتتاع والسيادة . وهي من الجهة الأخرى أمة تشبه الأمم الشرقية في جهدهم لدول القارة وتتفق مع بعضها في مقاومة النفوذ العثماني وتشجيع الحرية عليه . ومن آثار هذه السياسة أن بينها المسالك كان على مودة « شخصية » ودولية تربط بينه وبين بيوت لحكم والرياسة في أكثر الأقطار التي خضعت لسيادة العثمانية . فلما عزل الخليلو إسحاصيل جعل مقره الأول في البلاد الإيطالية . ولما هاجر لأمره الإيطاليون من بلادهم في الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العلية الثانية كان اختيارهم لمصر مطلقاً على اختيارهم للرحلة إلى قطر من الأقطار الأوروبية . وكان ملك إيطاليا يتوسط أحياناً في الأزمات المستحكة بين أهم المغرب ودولتي فرنسا وألمانيا . كأن يرى أن هذه الأمم تطعن إليه وتتقبل منه ما لم تنفخ عن الحكرمات الأوروبية . وقد تطوع الإيطاليون بعد احتلالهم « أفريقيا » لبذل العونة ونقل السلاح إلى سواحل جزيرة العرب لمقاومة المنافسين لنفوذها من الأوروبيين وغير الأوروبيين ، وكانت لهم جالبة نوبة في المسند السورية تعرب عن تأييدها للأحرار والثائرين تودداً لهم أو نشرأ للخدمة التي تلعبها من بلادها في إنقاذ النهضة والتوحيد والحرية .

• • •

هذه ابلدة عاجدة عن حركات الغرب في النصف الأخير من القرن التاسع عشر أو جزئاً فيها القول عن أهم أربع من أهمها التي سرت أجيالها وأغيار فضايها إلى شرق العربي وبلاد الدولة العثمانية . وهي على تناوبها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشترك في خطلة لا تغيب عن واحدة منها في خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحرث والحرثات .

فلذا كانت قارة الاسهام قد حصرت خطتها جبال الشرق في

المداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالد منذ الأزل ..
طابع العقيدة والإيمان .

• • •

في الثورة الأوروبية حكم التاريخ حكمه بعد النزاع القائم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، فوهم العلماء في مطلع الثقافة الحديثة أن هذه الثقافة حرب بين العلم والدين . فلما انتقلت ثقافة الغرب إلى الشرق تلقاها المسيحي في المدارس من رجال دينه ، وثقافتها المسلم مستجيباً لنداء « العودة إلى الدين » على كل لسان يسمع منه الوعظ وقبل منه الإرشاد ، فقد وقر في الاخلاد أن المسلمين هجروا دينهم فحاق بهم بلاء الذل والضياع . وافق الجامدون منهم على التسليم وانسحبوا إلى الجديده على هذا النداء ، فلا خلاف بينهم إلا عن الرجوع إلى الدين كيف يكون .

وربما قال الجامدون قبل المجددين إن الأوروبيين علموا بأدب الإسلام فأعدوا العدة ونظروا إلى حكمة الله في خلقه فتقدموا وتأخروا المسلمون .

وتباعدت المشقة بين المحافظين أنصار النص والحرف وبين المجددين أنصار المعنى والقياس باختلفوا على الكثير ، ولكنهم مع اختلافهم هذا لم يتفقوا على شيء كما اتفقوا من حرب اتفروا وعصاة الجهل والشعوذة الدخيلة على الدين ، فحاربها المحافظون الحرفيون لأنها بدع مستعارة من بقايا الوثنية ، وحاربها المجددون لأنها سخافات وأباطيل ينقصها العلم الحليث . وتراجعت إليه السخافات والأباطيل إلى إغماية لا جهل لا تهمر من التقدم إلى صفوف القيادة المسرعة بين أنصار التقدم ولا أنصار الجديده .

أكانت هذه الظاهرة النادرة إحدى حسنات التوفيق في صلب الدعوة إلى الإصلاح ، وتلك ولا ريب إحدى العوامل القوية التي جمعت دعوة .

الإصلاح مهمة روحية ثقافية . وجعلت رجلاً كالسيد جمال الدين الأفغاني داعياً مسموعاً حيناً حل في قطر من أقطر الشرق بين انصار العرب والفرس والهنود . وبين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وتأهيك بإمام من الأئمة تصدر له صحيفة « مصر » ويحرره تلميذه « أديب إسحق » وهو المسيحي كاثوليكي من تلامذة النعمانيين .

تلك سنة نعصر الذي قدم الكلام عنه بهذين السؤالين :

كيف نشأ الكواكبي في هذا العصر ؟ كيف لم ينشأ الكواكبي ل
منا نعصر ؟ وقتلنا لإنها سؤالان لا يتردد المؤرخ بينهما أيهما أحق بالتوجيه وأيهما أدعى إلى الاستغراب .

إن الكواكبي في أسرته ومنهته وزمنه اوفاق الشرط الذي تتطلبه رسالته المنتظرة في هذا الشرق بين البلاد العربية - رجل مرشح للولاية الروحية : مضطرب في سربه وذمارة . ينشأ في بلد عربي عريق يرتبط بعلاقات المشرق والمغرب وتنتفي لديه تيارات اخوثة العالمية . ويفتح عليه على العالم وهو يصيح أو يمسى على قضية من أو ثورة حرية . من ومنه فسد سماء ، وكاد يصمد إليه ولا يتخذه إلى سواه .

• • •

أَسْرَةُ الْكُوكَبِيِّ

ينتسب الكواكبي من أبويه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقد روى صاحب « إعلام النبلاء » بتاريخ حلب لشهداء « نسب الأسرة » نقلاً عن كتاب « المفاتيح والوائج » من غرر الحاسن والمفاتيح « الذي ألفه السيد حسن بن أحمد بن أبي السعود الكواكبي فجاء فيه أن أسيد أحمد هو :

« ابن أبي السعود بن أحمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن يحيى بن محمد بن أبي يحيى المعروف بالكواكبي قدس سره . ابن شيخ المشايخ والعارفين صدر الدين موسى الأردبيل قدس سره . ابن الشيخ الرباني المسلك تضحائي صفي الدين إسحاق الأردبيلي ابن الشيخ الراشد أمين الدين ابن شيخ اسلك جبريل بن الشيخ المفتي صلاح ابن الشيخ قطب الدين أبي بكر ابن الشيخ صلاح الدين رشيد ابن الشيخ المرشد الراشد . الحافظ ابن الشيخ صلاح ناسك عوض الحراس ابن سلطان المشايخ فيروز شاه البخاري ابن مهدي ابن بدر الدين حسن بن أبي القاسم محمد بن ثابت بن حسين بن أحمد ابن الأمير داود بن علي بن الإمام موسى الثاني ابن الإمام إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط الشهيد ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين ،

قال صاحب « إعلام النبلاء » بعد اسم صدر الدين موسى لأردبيلي : « الذي رأيته في عمود نصبهم المحفوظ في بيت الوقت بعد محمد أبي يحيى ابن صدر الدين إبراهيم الأردبيلي المنتقل إلى حلب ابن سلطان خوجه علاء الدين علي بن صدر الدين موسى الصفوي - فيكون قد سقط هناك شخصتان - ابن سلطان صفي الدين أمين الدين جبريل ، وهناك قد جعلهما شخصين . وبقي النسب كما هنا ، والله أعلم . »

وروى في هذا المصدر نفسه له الذمة المنصل بيني زهرة بيده فيه أن « والدة المحرم أبي السعود الشريفة عفيفة بنت بهاء الدين إبراهيم بن جواد الدين بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد بن شمس حسين الحسن بن علي بن أبي الحسن بن الحسين شمس الدين بن زهرة أبي الحسن بن الحسن بن زهرة أبي الحاسن بن علي أبي الوائج بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن الحسين بن إسحاق المؤمن بن الصادق بن محمد - قرأ ابن علي زين العابدين بن الإمام لسبط الشهيد الحسين . »

وبرى في عمود النسب لأبيه اسم صفي الدين الأردبيلي . ومن دريته إسماعيل الصفوي الذي جلس على عرش فارس وأسس فيه لأسرة الصفوية . ومنها « علي مياها بوش » الذي رحل إلى بلاد الروم وتزوج سيدة من حلب ثم قتل إلى بلاده ، ونُحِفَ بها أجداد الأسرة الكواكبية .

ومن أعرق علماء حلب من أسرة الكواكبي الشيخ « محمد بن حسن بن أحمد الكواكبي » الذي تولى منصب الإفتاء فيها ، وكان مولوداً بها سنة ثمان مائة وألف هجرية (١٦٠٩ م) وتوفي بها سنة ست وتسعين وألف هجرية (١٦٨٥ م) وله مؤلفات في علوم الفقه والحصول والكلام والمنطق . منها : شرح اقراءت الحنية . ونظم الوافية . ونظم المسار . وإرشاد الطالب ، وشرح كتاب المواقف ، وحاشية على تفسير البينادي ، ورسالة في المنطق ، وتعليقات على تفسير سورة الأنعام .

وأول من اشتهر من الأسرة باسم الكواكبي - فيما يقال - محمد أبو يحيى بن صدر الدين . قال صاحب كتاب « نهر الذهب » في كلامه عن جامع أبي يحيى الكواكبي :

« يظهر أنه جرمع قديم وأنه اشتهر باسمه الحلي نسبة إلى محمد بن إبراهيم بن يحيى الكواكبي ، لأنه وشبهه وأقام فيه أذكاه ، طمعا مات دفن فيه ، وبني عليه « سيابى بن عبد الله الجركسى » قبة من ماله . وهو جامع فسيح له قبلة متوسطة تقام فيه الصلوات والجمعة ،

الذين آمنوا المتعلمين والامانة للعلمين : ووجما كان من اتباع صدر الدين
أحناف يتبعون كما يعلم من كثرة مريدته من التركة المتقلبين إلى إيران
في أسر السلطان تيمور .

وقد كان اتباع الكوركي للمذهب الحنفي لا يمنعهم أن يدعموا إلى
وحدة المذاهب وإقامة الإمامة على غير قواعد الخلافة في الدولة العثمانية .
فربما كان هذا التصرف بين الشعبين على المنهج المتطهر من كليهما قرابة
باطنية تمحو ما يراعى للنظر من ظواهر الاختلاف .

...

النشأة

لطفل أبو الرجل .

مدق من قهسا بما عنده من لفظها ومعناها . فإن الرجل الكبير
ينولد من الطفل الصغير فهو وليده وصليبه على هذا التعبير .

وقد كان عبد الرحمن الصغير أباً مبكراً للرسالة المجاهد المفكر
الحكيم صاحب : أم القرى ، وه طابع الاستياد ، ورائد النهضة
العربية ن طليعة الرواد .

من أقضى ما يصاب به الطفل ن نشأته أن يفقد الأم ويغترب عن
الأب وعن الجيرة أي فتح عليها عينيه من دنياه .

وقد أصيب الطفل عبد الرحمن بهذه المحن جميعاً . فصلب لها غوده
للدن وهو دون العاشرة : ونما على معدن الجهاد في طبيعته قبل أنوان
الجهاد في عنوان شبابه : فن هذا الطفل الدارج من المهدي نشأ ذلك
الكهل الذي أقدم على مخاطر الهجرة والرحلة الطويلة على غير أمل في
العودة إلى الوطن وعلى غير أمان من الغيلة والفضلك والمنشقة ، وهو
رب أسرة وأب أبناء وفرع أرومة فأصلت في منبتها - الذي قطع
نفسه عنه - منذ مدت الستين .

نقول الأوراق الرسمية إن صاحب الترجمة ولد حوالي سنة ١٢٤٨م
(١٢٦٥ هجرية) وينول ابنه الدكتور أسعد إنه ولد بعد ذلك بسنوات .
وطلب تصحيح تاريخ المولد لسخول الانتخابات : وإلما كان مولده
الثابت من سجلات الأمرة في سنة ١٢٥٤م (١٢٧١ هجرية) ، وتوفيت
والدته سنة (١٢٧٦ هجرية) وهو في نحو السادسة من عمره ، أو هو قد
تأخر العاشرة إذا أخذنا بالرواية الرسمية .

لاحتياله - جميل باشا - ولع في خضومة عبقة بينه وبين التتمصل الإنجليزي في المدينة ، فاجأ التتمصل إلى تموذ دولته في العاصمة ، وبأذرت العاصمة إلى التحقيق على غير عادتها ، فقدم مندوب الوزارة المحقق إلى حلب وهو يتسلم بزمالة الكواكبي وصدقته ويعلم أنه مطلع على الحقيقة من شهادته وتوجيهاته ، فأبت مروعة الرجل أن يؤيد وكبلا لدولة أجنبية تعتم اتأييد في البلدة من وراء فوزه في هذه الخسومة وانتصاره على أكبر ولاتها ، وشرح الموقف لشعوب التحقيق من هذه الوجهة . فلم الوالى من عاقبة هذه الأزمة - ولم يسم الكواكبي من أده .

وأخطر ما أتمره به أن يتوآما مع دولة أجنبية لنسيم البلاد إليها ، وهى جريمة عقوبتها الموت إذا ثبتت ، وتثبت بالشبهة القوية عند سادة العصر إذا تغوت الأسانيد القطعة ، وأوشكت قرائن التزيف والتهديد أن تطلق على اسم البريء لولا أنه نجح في نقل المحاكمة من قضاء حلب إلى قضاء بيروت . فكان ابتعاد المحاكمة عن مقر التزيف والتهديد سبيلا إلى جلاء الشبهة وثبوت البراءة ، بعد أن ضاع أرجاء فيها أبو كاد .

إن سيرة هذا البريء المظنوم مادة حراسة لمظالم والأباطيل ، وإن أعداءه في بلد أعوان همته وعزمه ، فلولا هم بجاز أن يسكن إلى مقام يستطاع ويعمل ، ولكنهم أحسنوا غير عاملين ولا مشكورين فجاوزوا به حد الاحتمال .

...

ثقافة الكواكبي

كان الكواكبي « ابن عصره » .

وجهد الإنسان من الثقافة أن يعيش في عصره لا يتخلف عن شلوه حتى علامه ولا في عمله ، فليس للثقافة من حسنة ألزم لها من هذه الحسنة في مجال المعيشة ولا في مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح .

فالرجعي الجأى يعيش في الأيام الماضية .

والطوبى الحالم يعيش في الأيام المقبلة .

ولكن الرجل المثقف يؤدى للثقافة كل حثها إذ استفد من معارف زمانه ولم يتفقد بدنيا الزمن السابق وعناييله . فعمل كما ينبغي أن يعمل كل من تحرر من قيود التقليد التي يرتبط بها المقلد وهو لا يفقه معناه . والذين أصابوا من ثلاثة أثرون الناصع عشر كما أصاب الكواكبي كثيرون يعملون بالمشاة . ولكن الذين لهم من ثقافتهم فضل كفصله أحد يعملون على أصابع أيدين .

إن فضل المثقفين في عصر الكواكبي أنهم تعلموا كما فرضت عليهم البيئة أن يتعلموا ، وسبقوا إلى التعلم مع الزمن كنه ، غير غيرين .

أما فضل الكواكبي في ثقافته فهو أكبر من فضل واحد :

إنه فضل المثقف الذى تلقى ثقافته من قرة اجتهاده ومشيبته .

وإنه فضل المثقف الذى بلغ بوسيلته ما لم يبلغه أناداه بأخذف تلك الوسيلة .

وإنه فضل المثقف الذى انتفع بثقافته وبنفع بها قومه . وجعلها عملا منتجاً : ولم يتركها كما تقرأها أكرأ وكلمات .

الجرافة ، وحواشي البضع التي أصقت بها في عصور الجمود والتقليد ،
فالحفاظة في اعتقاده مرادفا للتجديد على أقوم سبله . واعتبار الكواكبي
من صميم الحفاظين في الذين لا يخرجونه من زمرة الجدد المتشككين في
صليب الإصلاح . بل هو على قدر غلوة في الحفاظة على تراث السلف .
يقول في دعوة الأجيال المقبلة إلى التحرر والتجديد .

وقد كان يشتد في الحفاظة لحبائنا في تخرج من تغير العادات في
غير جرح : كما نرى في انتقاده لنسي أنى به على السلطان محمود لأنه
« اتهم من الإنجليز كسرتهم وأزيم رجال دولته وحشيتهم بأهلسا حتى
حمت أو كادت ، ولم يشأ الأتراك أن يغيروا منها الأكام دعاية للدين
لأنها دامة من أوصوه أو مصرة له » .

وإن هذا الانتقاد لإمراط في الحفاظة ياحقه بزمرة الحفاظين المصلا
في حرصهم على سميت السلف وريه الذي لا مدس له بجهز العقيدة :
وقد رأينا من معاصريه أنه ربما نزع إليه إفراطا منه في السخط على
سلاطين الدولة وأساليبهم في التفریب بين الشرق والغرب والتفليم
والحديث : ولكنه .. كما نرى من حفاظته على زيه في وطنه وبعد
هجرة منه إلى الهند والبار المصرية -- لم يكن يعمل غير ما يقول . ولم
يكن يفتد بكلامه ما يتخصص فيه بمساكنه . فإنه بقي على سنة أسلافه
قبل عهد السلطان محمود فلم يبدل زيه إلا لباس العباد والمقال .

وربما جنح في أواخر أيامه إلى آراء بعض المعصوفة في تدوير
الكائنات الغيبية بأهالي النفسية والرموز الروحية . وأبعد ما ذهب
إليه من ذلك قوله في مصل التربية من طبائع الاستعداد : « إن يشأ
الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير
خواطر الخير ، وإن شاء تلبس بفرقايل حتى يكون أحط من الشياطين ،
إن كان هناك شياطين غيب وساموس النفس بالشر .. » .

ورد هنا في الطبعة التي ظهرت بعد وفاته ولم يرد في طبعة من
الطباعات التي أصدرها في حياته . ولعله مر بها الخاطر بعد اطلاعه .

على التفسيرات الحديثة على أطراف من كلام الصوفية المتأخرين .
ولا تخله قد غفل في مطالعته الدينية عن تفسير كتفسير السيد محمد الأتومي
المؤلف سنة ١٢٧٠ هجرية . فإنه يشير إلى أمثال هذه الخواطر كما فعل
بعد تفسير الآية عن زلل آدم وجواء إذ أكلا من اشجرة لقاب : « وبنا
هم بخرجان في الجنة إذ راعهما طافوس يحملهما على صدور أحدهما
حواء منه ، وتبعها آدم فوسوس لهما من وراء الجدار .. ومشهور كناية
الجنة .. يشير أولهما عند سمادتنا الصوفية إلى توصله من قبل شهوة
خارج الجنة ، وثانيهما إلى توصله بالغضب . وتصور جدار الجنة عليهم
إشارة إلى أن الغضب أقرب إلى الأفق الروحاني والجزء النقي من
الشهوة . وقيل إن توصله إلى ما توصل إليه إذ ذاك مثل توصله إليه إذ
لذلك من شاء الله تعالى وإضلاله ، ولا نعرف من ذلك إلا هواجس
والخاطر التي تفتق إلى ما تفتق . ولا جزء عند كثير في دخول
الشيطن في القلب بل لا يملونه ، ولهذا قالوا : إن خير (إن شيطن
يجرى من ابن آدم يجري الدم) محمول على الكسبية عن مزج سطه
عليه انقيادهم له ، وكفى لك تحاور هذا القول . وقال أبو منصور .
ليس لك البحث عن كسبية ذلك ولا تقطع القول بلا دليل ... »

وقد تقدم من كان يقول - كالجبائي وأبي بكر الرازي - إن أثر
الشيطن في دم الإنسان كثر النفس فيه ، وليس للشيطان وجود جسد
في دحل السنة الإنسانية . وليس له من إيمان عليه غير ما يندب به
على موه .

فرد الكواكبي قد لاحظ له هذه اللوحة اعابرة فاحصا به تلك
الخواطر الصوفية ولا تلك الخواطر البلية التي أورد ما مررد الاحتمال .
ولم يفتد بالقول - على حد عبارة السيد الأتومي - بغير دليل .

ولا تزان حجة الثقافة العبرية أطلب السمات على هذا الفعل المستنير ،
تجنبه المحافظة على سنة السلف أحياناً ، بل تجلبه كثيراً ، ولكنها لا تجلبه
إلى جانبها إلا من جانب التجديد ، لأن التجديد عنده هو محور الفضول
عن العقيدة الإسلامية والعروة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة والاجتهاد
المنقول عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة
والاجتهاد في الفهم المنزه عن قيود التقليد .

أسلوب الكواكبي

كانت أساليب الكتابة في أواخر القرن الثامن عشر لا تتعدى
أساليب الرسائل ، والمحادثات ، أو الإقادات ، بين عامة وخاصة .

وكانت الرسائل العامة - وهي رسائل تنووين - مفرقة في
قواها انتقيدية تتكرر على صورة واحدة في مناسباتها فلا يستريح الكاتب
أن يصرف في ألفاظها ولا في ترتيب عباراتها رصينة استهلاها وختمها .
أو ديباجها ونفيلها ، باصطلاحهم الذي حفظوا عليه نحو قرن كامل
بعد هذه الفترة .

وجرى الإصلاح من المفردات المنفردة كما جرى على جعل
وإنجازات في تلك رسائل الرسمية . فأصبحت لغة الدبلوماسيين ،
خاصة ، بن المصليحة والسراجة تتخللها الكلمات التركية أو الكلمات
العربية بأوزانها التركية . ونشر فيها ملاحظة قواعد الإعراب فضلاً
عن قواعد صرف على أصرف العربية .

ولم تكن تلك الكتابة ، بمعناها المفهوم في أحوال الأدب والشفقة .
فلم يكن في القرن الثامن عشر من يكتب ليبر عن فكرة أدبية أو عن
حالة نفسية ، أو لصور إنسانية معنى مبتكر من عنده أو معنى
مفهوماً من معاني العلم والمعرفة ، وإنما الكاتب يمشد من كان يستفهم
أتمطاً من المصغ يتناولها جميع الكتاب على صورة واحدة في مناسباتها .
ولا يستطيعون إعادتها بمثلها على صورة أخرى غير التي حفظوها
وتداولوها .

أما كتابة التعبير ، فقد تعهت في عصور الجمود والتقليد ولم
يشعر أحد بالحاجة إليها للتأليف والتصنيف أو لإنشاء مما عنده من

المخاطر والآراء . إذ لم يكن ثمة من يؤلف ويصنف : ولم تكن ثمة خراطير وآراء يتبادلها الكتاب والقراء ، بل لم يكن ثمة من يقرأ القديم ويرغب في نسخه وحفظه ، وفي تعلمه وتعليمه ، لقلة العناية بالعلم في غير أغراضه المتواترة التي يكتبون لها بالحفظ والنقل والمحاكاة .

وظلت الكتابة للتعبير معطاة إلى أوئل القرن التاسع عشر الذي تنهت فيه البلاد العربية لموقفها من أمم الحضارة ، فاحتاجت إلى التعلم منها كما احتاجت إلى إحياء علومها وآدابها التي بنيت لها بقية من المخر بها وألحقت إليها . فانبعثت الكتابة العربية الحديثة مع حركة الترجمة وحركة الطباعة . وولدت « أساليب الكتابة » في مولدها الجديد يوم احتاج المترجم إلى فهم شيء منفصل مشروح بين يديه يؤديه من عنده بعبارة عربية تطابقه في معناه ، ويوم شعر بالضرورة أن تلجئه إلى مراجعة كتب السلف يتعلم منها أساليب الأداء ويستوعب منها أصوله من المفردات والفراكيب .

وبدأت الكتابة العربية - مع ابتداء حركة الترجمة والطباعة - ضميعة متعثرة تشبه كتابة اللولوين وتفتت إليها . ثم نشطت من عقائدها قليلا قليلا حتى استقامت على قدميها في شيء من الاستقلال واتقنه ، فانقضى جيل من المترجمين والكتاب أو جيلان قبل أن تظهر في عالم الكتابة العربية أقلام يتيمة بلا قلم من قلم ، وأسلوب من أسلوب . ويتحدث القراء عن أسلوب هذا الكاتب وأسلوب ذاك .

وتنوعت الأساليب على حسب القراءات والمطالعات ، فالذين أكثروا من قراءة كتب الأدب أو قراءة كتب التفسير والأحاديث النبوية ظهرت في أسلوبهم جرأة للنظ وسلامة التركيب وقلت فيه أخطاء النحو والصرف وأخذت اللغة عن الإجمال ، والذين أكثروا من قراءة كتب التاريخ والدراسات الاجتماعية ومراجع الحقوقي والأحكام ظهرت في أسلوبهم سلامة التعبير وسهولة الأداء ودقة المعنى على تنبيه أصحاب العلوم أو أصحاب الأحكام : « ولكنهم لم يسلموا من بعض الخطائين

ترواح الإعراب والتصريف على ديدن أمثالهم ونظرهم بين الكتب الأكملين .

وربما اتصح الفارق بين الأسلوبين بتسمية لأعلام من كتب في مدرسة متبعة في ثقافتنا العربية ، فهما مدرستين : أندية ينضوي إليهما أمثال ابن المقفع وأبيدع والجرجاني وابن عسكرو وابن زيدون . وعصبة ينضوي إليها أمثال الغزالي وابن خلدون وابن جبر وابن بطوطة ومصر كتاب التاريخ والرسائل ومباحث الأخلاق والاجتماع .

• • •

والكواكبي قد بدأ حياته الصحفية بعد منتصف القرن التاسع عشر . وأخذ يشدو في فن الكتابة خلال تلك فترة المتوسطة بين ابتداء حركة الترجمة والطباعة وانتشار المطبوعات من كتب السلف . وما استيعبه من شيوخ الفصاحة والاستقلال بالتعبير

ولا أذن من أصالة ضعه من أسلوب كتبه . فكان أسلوبه به من مطالعاته . ومطالعاته نمت على الوجهة التي اتجه إليها بفطرته واستعداده بربيتته . وهي وجهة العمل على محاربة الاستبداد ونسج مبادئ الحرية .

وكان الكواكبي كثير المظاهرة فيما ينفعه في هذا المطلب ويستحث خطاه إلى هذه الوجهة . قبل المطالعة فيما عده من كتب العرب حتى يسميه علم السنة أو العلم المتوسل بنفوس المعاصرين عن سنون أبيه . وإلى هذا يشير في كتابه « حيلع الاستبداد » حيث يقول : « إن المنفعة لا تحصى علوم اللغة - تلك العلوم التي يفتقر إليها الإنسان وأكثرها مراء وهذيان . هم لا يخوف علم اللغة إذا لم يكن وراءه اللسان حكمة حسان تعقد الألفية أو سحر بيان يحل عقد الجيوش » .

ثم يقول : « كذلك لا تخاف المستبد من الغزو الدينية المتعلقة بأعداد المختصة بما بين الإنسان وربه ، لا اعتقاده أنها لا ترفع غشاوة ولا تزيل غشاوة . وإنما يتلصق بها المبرسون » .

إن أن يقول : « ترتد فرائض المستقبل من علوم أخياة مثل الحكمة ، النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطائش الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والحطابة الأدبية . نحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الإنسان ما هي حقوقه . . . »

ومن المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة طبائع الاستعداد أولئك الذين أغوا في علم السياسة : مزدجاً بالأخلاق كالمزجى والنفوس والغزالي والملائي ، وهي طريقة القرس ، ومزدجاً بالأدب كالمعري والشنبي ، وهي طريقة المغرب ، ومزدجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة . وهي طريقة المغرب . . .

. . .

ولا يرى من مطالعائه في الشر أنه كان يخف إلى قراءة شيء من اسطغوم على غير ذلك المثال الذي كان يستشهد به في بعض فصوله « أه القري » أو « طبائع الاستعداد » كقول الشنبي :

« إنما تناس بالسلوك وما تفيلح عروب ملوكها تعجم

« وقول الذي استشهد به على صفة المستبد :

« إذا ساء نفس المرء ساءت ظنون وصدق ما يتدوه من تدوهم

أو قوله في وصف أجهلاء المسخرين :

« بأرض ما استهيت رأيت فب غلبت يقنوتها الأكرام

أو قوله في الصلاة :

« إذا لم تقم بعدل فينتا حكومة فنحن على تغييرها قلدرا»

ولم يذكر من شعر الجاهلية غير كلام عمرو بن نفيل يعي فيه على الجاهلين عبادتهم للأرباب الكلية وإيمانهم بالخرافة :

أرباً واحداً أم ألف رب
أدين إذا تمست الأمور
تركمت المات والمزى جيباً
كذلك يفتل الرجل الحبير

لهو قارىء وتفوده فطرته إلى مطالعائه . وكتب تسرى إلى قلعه أساليب الموضوعات التي بطلها ولا تصلح لأسترب غيرها ، وبمحنة حين يحرق بها تسلم في الصحف الباردة حيث كتب الكواكبي مذلاته الأولى ومقالاته الأخيرة التي اجتمع منها كتاب طبائع الاستعداد . وما كتب أثناء ذلك في غير الصحف - كأم القري - فإنما هو فصول متباعدة تصلح للنشر في الصحف الدورية على النحو الذي ظهرت به في الكتاب .

وكان الكواكبي رحمة مطبوعاً على السباحة في الأفاق ولم يكن مصاراه أنه رحلة على صفحات الأوراق ، وقد طبع كتب المؤرخين والرحالين قبل أن يخرج من بلده للطراف في الأرض والكتابة للتاريخ . وبأشر الرحلة في صفحات الكتب قبل أن يباشرها على متن الإبل والسفن في الصحارى والبحر . فنقرأ ابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة ثم نقرأ مذلات الكواكبي خيل إليه أنه قد بنوا من مرافهم في رحلة من رحلات المعصوم يكتدون ويسجلون ما شهدوه وكسبه لأبناء العصر الحديث .

وقد اتهم أسلوبه بصفة الأسلوب الذي تكتب به التاريخ والرحلات ، وعلت عبارته في لغة مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع المشاهدة ويتبسط في وصف ما يراه بالكر كما يتبسط في وصف ما يراه بالعان .

ولا يخفى لي هؤلاء الكتب - كما خدمنا - قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحث ثمة والبيان . فليس من الغريب أن تلصق إلى أعلامهم أخطاء الألسنة في زمانهم . وأن يردد في عباراتهم بعض الصور الذي ينحرف منه التغيرات وكتاب الأدب : في مدرسة ابن المقفع والبديع والجاحظ وعبد الحميد . وشأن الكواكبي في تلك قريه من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بل من

شان الغزالي وابن مسكويه وسائر أصحاب الكلام حتى لم تنفوخ للأدب واللغة وشغفها دقة التعبير من دقة لإعراب .

تقرأه - مثلاً - في تعريف الاستبداد : « إن النظر في أحول الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقين متراكون ... أما العتائر والأمم الحرة ... فيمشود متفرقون » .

أو تقرأ مثل قوله : « الأزواج الحفدة » ... « ولا يخرج قط » . « وقوانين لكافة الشؤون » .. « وحياة الأمم المزجج بالكلام » .. « وعلى هذا المنقح بوضع كتباً مستهاب » .. « وإن هؤلاء الأئمة الأقدمين لا يقننوا أن يطلعوا على مالا يقدر الآخرون أن يطلعوا عليه » .. « ولا تتحقق في الإنسد إلا في فن واحد - قط يتولج فيه فبفتنه » ... إلى أشباه هذه المتأخذ حتى كانت تشيع في صحافة عصره ولم يكده علم منها كتاب الأدب والتاريخ ، وثبت بغير كواكبي من أنل زملاته ونظرائه تعرضاً لمنه المتأخذ وخت .

...

ولا ننسى أن « الكواكبي » كان يتحرى فيما يكتب ويعمل شيئاً واحداً لا يتحول عنه بذكره ولا بقوله . وهو محاولة الاستبداد .

ولا ننسى أن معبر القبول الشافعي منه أن يخشاه المستبد ولا يطعن إليه ، والمستبد لا يخشى « حرم اللغة » حتى أكثرها عزل وهدمان ولكنه يخشى من الكلام حكمة احصة . لأنه تعتد الأكلوبة وتحمل سقطة الجبوس كما قال

ولهذا كان هذا المملوك الخطابي من الأساليب الخفية إلى الكواكبي في كتابته . وكان يخشى إليه خيائناً أنه يبق بانقلم جانباً ليتكلم إلى القراء كلام الخطيب على المنبر لمن يصغون إليه بالأمم ، أو يصغون إليه بالقلوب بدل الأمم

(٢) أم القوي

(١) طباع الاستبداد .

« وكنت تراه بهم ملك وهو يختم كلامه على الاستبداد والتفوق بهم الكلمات » .

« على ذكر الهم الإرشادي للاح في أن أصول الرقي . لاخطط في النفس وكيف ينبغي للإنسان العاقل أن يعاقب إيقاظ قومه وكيف يرشدهم إلى أنهم خلتوا لغير ما هم عليه من الصبر على لذل والسفالة . يذكروهم ويحرك قلوبهم ويناجهم وينذرهم . بنحو الخطابات الآتية » . ثم يقول :

« يا قوم ! يلازعي والله الشعور هل موقفي هنا في جمع حتى فأحييه بالسلام . أم أنا مخاطب أمل القبور فأحييهم بالرحمة » . « يا هؤلاء ! لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين . بل أنتم بين بين في سريخ يسمى الموت ، ويصح تشبه بالتم » .

« يا أيده . إلى أرى أشباح أناس يشبهون قوى الحياة وهم في الحقيقة موى لا يشعرون ، بل هم موى لأنهم لا يشعرون .

« يا قوم ؟ هناك الله . إلى متى هذا الشقاء المديد : وأناس في نعيم منيع . وحر كريم . أفلا تنظرون ؟ » .

وفي مثل هذا المقام يلتفت بعد ذلك بصفتحات ليذهب الخرق والشراب بالخطاب : إذ نادى الشرق : أ لا : فادبه .

« هناك الله يا شرق ! ماذا أصابك فأخل نظامك ؟ ولدهر ذلك الدهر : ماخير وضعت ولا بدل شرعه فيك » .

« هناك الله يا شرق ! ماذا عراك وسكن منك الحراك . أم نزل أركك وسعة خصبة ومعادنك وافية غنية ، وجوانك رايب مساملا ، وعمرانك قائم متواصل ، وبنوك .. حلى ما ريتهم - أقرب للخير من الشر ... ليس حنهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب : وعندهم الجلاء المسمى بالهجرة ، وعندهم الكرم المسمى بالإتلاف ، وعندهم الفتاة

المسبة بالعجز ، وحدهم العفة المسبة بالبله ، وعندهم الجاملة المسبة بالذل ؟ .. نعم ما هم بالسالمين من الظلم ولكن غيا بينهم . ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ، ولا من الإضرار ولكن مع الخوف من الله . ثم يلتفت من خطاب الشرق إلى الغرب ليخاطبه على هذا النحو قائلا :

« وعاك الله يا غرب وحيك وبياك . قد عرفت لأحباك سابق فضه . عليك ، فوليت وكفيت ، وأحسنت الوصاية وهديت ، وقد أشد ساعد بعض أولاد أنبيك ، فهلا يتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أنحاب أنبيك على هدم ذلك السرور ، سور الشؤم والمرور ، ليخرجوا ياخوانهم إلى أرض الحياة ، أرض الأنبياء الهداة .

« يا غرب ! لا يحفظ الدين غير الشرق إن دامت حياته بحريته ، وقد الدين يهددك بالخراب القريب .. »

ولم يكن أسلوب المنبر يسعده في جميع الأحوال لأنه أسلوب لم يحن له ولم يطبع عيسه ، ولكنه كان يكتب أحياناً ويحس أنه يثور ثورة الخليل فيبعد نارة إلى أسلوب التوكيد والتشبيث ، وبعد نارة أخرى إلى أسلوب التصوير ومحرّض الخيال ، ولا ينفك التوفيق أحياناً في هذا الأسلوب .

ومن ذلك قوله : « احبب حدو الحق . هدر الحرية ... والحق أبو البشر والحرية أمهم ، ولعوام صبية أيتام ، نيام » .

أو قوله : « لو كان المستبد طيراً لكان خفافاً بسطاد حرام العوام في ظلام الجهل ، ولو كانا وحشاً لكان ابن آدم يلقف دواجن الحواضر في ظلام الليل

أو قوله : « الاستبداد لو كان وجلاً يحسب وينسب لنال : أنا بشر ، وأبي الظلم ، رأي الإساءة : رأيي الغدر . رأيي المسكنة ، رأيي الضر ، وخالي البلاء ، وابني القهر ، وهاتي البطالة : وحشيتي

الجهالة ، ووطنى الخراب . أم ديني وشرقي وحياي فالسك اسال المال .. » أو كقوله : « إنه المعتوك الذي .. قل في البشر من لا يحول فيه حل بليل من الفكر . أو حل جمل من الجهل ، أو حل قوس من القرامة . أو حل حمار من الحق ، حتى جنة الزمن الأخير فجال فيه إنسان تغرب جولة الغوار المتطى في التدقيق مرآكب البخار » .

ومن توكيداته الخطابية ما يجري فيه على مثل قوله ، « الاستبداد أشد وطأة من الوباء . أعظم تخريباً من النيل . أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بالنفوس سمعت أرواحهم هاتف السماء يشادى لقصاصا قصاص ، والأرض تنأى رجا يكشف بلاء » .

ومنها ما يجري فيه على التوكيد بالتكرار كقوله عن التعاون : « به قيام كل شيء ما عدا الله وحده . به قيام الأجرام السماوية . به قوام كل حياة به قيام المواليد . به قيام الأجناس والأنواع . به قيام الأمم والناسل . به قيام ته ثلاث به تعاون الأعضاء . نعم : الاشتراك فيه سر تضعف القوة بنسبة ناموس التوزيع . فيه سر الاستمرار على الأعمال التي لا تفي بها أعمار الأفراد » .

ومنه ما يجري فيه على التوكيد بمثل هذا التكرار : « يجددون النظر في الدين نظر من لا يحفل بخير الحق الصريح . نظر من لا يضيغ النتائج بتشويش المقدمات . نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة . نظر من يريد وجهه ربه لا مبالاة الناس إليه » .

ونأق عند قوله : « إن المصلح ينبغي أن ينظر في الأمور » نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة : ونظر من يريد وجه ربه لاستمالة الناس إليه .. فإله قد أودع هذه الكلمة روح هذا الأسلوب النصيح بمنصده البين وصمود صاحبه على هذا المقصد طرأ حياته : بل أودعه في الحق روح كل أسلوب يؤدي لقارئ من وراء الجمال والمفردات فوق ما تؤديه الفاظه ومعانيه . فإن إخوان السكواكبي الذين عاشروه وأنفروا الاستماع إليه وفراسته

معاً يقولون : إنهم كانوا يؤمنون بنبي واحد من حديث لسانه كما يؤمنون به من حديث قلمه . كانوا يؤمنون قبل كل شيء بإيمان المتكلم بفكرته وشعوره بإداهة دعوته وصدق رغبته في إقناع غيره بما هو مقتنع بهفروجه . لعامة قومه ، وأسلوبه في الحديث وأسلوبه في الكتابه متقاربان متعادلان لا يقع بينهما من الاختلاف إلا أن يكون حثلاف القائل المرسل بين الناس والقائل المحتفل على هيئة بيت وبين نفسه . وعلى هذا الوجه يصح أن يعتبر أسلوب الكراكي خطاً من أمشاط الحديث الخطاطي أو الخطابة المكتوبة . على الطريقة التي تنسب للمتحدث الملبس وإن لم يكن في المدخل من الخطابة المطبوعين .

ولا شك أن الكراكي قد حاول كل وسيلة من وسائل التعبير لإبلاغ دعوته ، إظهاراً للحقيقة لا إظهاراً للفسحة . . . فإنه قد هالغ نظم الشعر وأثبت في أم القرى بعض منظومات في شبابه ، فامتتح الكتاب بإحدى النصائح يقول منها :

دراك فإن الدين قد زال عزه
فكان له أمل يوفون فيه
علموا إلى بدل اتعنون إنه
علموا إلى أم اقمرى وتعلمونوا
فإن الذي شادته الأسباف قللكم
هو اليوم لا يحتاج إلا الألسن

واختتم الكتاب بقصيدة أخرى يقول منها :

غيرتمو يا جباري ما بأنفسكم
الله لا يهلك القسرى إذا كثرت
يا قومنا صححوا ترجميد بارتكم
ولفحوا الشرع من سنو وعترع
هلى وسيلتكم لا عسبرها أبداً
صباصة الدين أولى ما تنس به
فيها الحياة وفيها حفظ رايتمكم
فعبير الله عنكم سماع النعم
وأهلب مصلحون في نشرهم
يلون لإشراك أجباء ولا رم
رجعى إلى دين أسلاف ذوى ميم
فامعوا لهضنكم يا غيرة الأمم
شقى الخلاق من حرب ومن عيم
خلفراء سوداء حول اركن والحرم

ولم نقرأ له نظماً غير هاتين القصيدتين . وها - كما يرى القارىء - من الشعر الذى يوصف بأنه شعر العلماء ، لعله حاوله رمزاً ولم يجد فيه بيئة من نشر الدعوة وتبليغ النفوس والأذهان ، فعذر عنه ورضى لسكونه وفق لأصاليب لها وهو أسلوب المواجهة الخطابية على منبر الصحافة كما صيغ في كتابه ، طالع الأسبلة ، ومثل أسلوب تفصيل الذى يكتب كأنها خطب ألقاها المتكلمون وتماثروا على إلقائها والحوار فيها كما يتعاقب المتناوضون في مؤتمر المحاضرة .

إن الكراكي لقدبر على أن يجد نفسه حيث يريد - كما يقول الثريون في تعبيراتهم - فلم يبحث طويلاً حتى وجده ، ولم يبحث مريلاً بعد أن وجد دعوته حتى وجد أسلوبه ، وهو أسلوب الكاتب الذى يراجه القراء كما يراجه المستمعين .

...

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است و در اين كتاب ذكر شده است

و انچه كه در اين كتاب ذكر شده است

[illegible]

וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

۱- در صورتی که در یک سال دو بار باران ببارد و در سال دیگر باران نبارد
 و در سال دیگر باران ببارد و در سال دیگر باران نبارد و در سال دیگر باران ببارد
 و در سال دیگر باران نبارد و در سال دیگر باران ببارد و در سال دیگر باران نبارد

[illegible][illegible]

بیتہ چمکایا، بے اجرا، بیتہ چمکایا، بیتہ چمکایا

- 51 -

(Faint handwritten text from another page)

2015年12月

في سنة ١٢٨٥ هـ الموافق ١٨٦٨ م

[illegible][illegible]

محاربة الاحتكار ومقاومة البول المستعرة التي تغدق على إحداهما ، تخويفاً لها من عواقب الماطعة على مطامعها الاقتصادية .

فلماذا جاز أن نغتنق على الكواكبي أسباب النشل الذي منى به المسلمون فيما وعاه التاريخ أو لاحظت به التجربة والمحادثة ، فليس من الجائز أن تفوته أسباب النشل التي تشتم عليه داره وتسلبه قراره ، ويبطل به الصيادى في شرفه ونسبه وعمله واجتهاده ، ولا يرضيه منه إلا أن يعترف له بالنشل الذي اغتصبه منه ويجزى بالتأييد والتكبير على محاربه إياه .

غير أن الكواكبي لم تعوزه الأمثلة غير هذا المثل في بلده وفي حاصمة الدولة ، فكل من تولى الحكم في حلب كان مثلاً كبلنا المثل في كشمه عن المسارى ومهادته إلى مواطن الإصلاح ، ووسائل الكواكبي إلى كشف الحقيقة غير قليلة في نطاق حياته ورجاء معيشته ، إذ صرفنا النظر عن مطالعاته ومبادئه . إذ هي وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاء والإدارة ومراكز التجارة وشركات الاحتكار ، وهي إلى جانب ذلك وسائل الرجل الذي يحمل تكاليف الراحة وبقيته الناس مقام المستول عن مرافق البلدة وتخفايا لكسب والسمى بها من مباح ومحظور .

إن الباحث في « أم القري » تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكبي لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس في الكتاب فكرة يعز عليه في ذكائه ويحسه أن يستوحىها من مكانه وزمانه ، ولا مضاضة على مثله أن يسترشد بعد ذلك بنصائح ذوى رأى فيما يناع أو لا يناع ، وفيما يحسن نشره لميته أو يحسن إرجاؤه إلى حين .

وعلى الجملة يصح عندنا أن نفهم أن جوهر الكتاب وهو البحث عن حل الأمم الإيمية وعوامل شغلها عمل شامس للكواكبي فرغ منه في بلده قبل هجرته منها .

أما موضع تقييده والإضافة إليه والحذف منه فهو شكل الكتاب ،

ووما كتبه فيه أنعمراً عن شكل « الجمعية » كما تخيلها وكما اعتضد بعد رحلاته في العالم الإسلامي أنه أقرب إلى تفيلها ، وقد نشر الكتب في طبقات متلاحقة فأعيد فيه ما حذف منه ، فلا التباس اليوم بين عمل الكواكبي في « أم القري » وبين عمل المحمدين فيما أبقاء وفيما حذف منه إلى حين .

...

طبائع الاستبداد

هذا الكتاب الذى يمد آية الكواكبى ، يتألف من سلسلة مقالات نشرها لأول مرة فى صحيفة المؤيد وتساوول فى كل مذلة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التى يشاهد أنرها فى أحوال الأمم والأفراد : وانتهى الكتاب وقد بحث فيه جملة العوارض الاجتماعية التى تصاحب الاستبداد فى أحوال الدين والعلم والتجديد والأخلاق والتربية والتقسيم . ومهد للمفالات بتعريف الاستبداد ثم عقب عليها بوسائل الخلاص منه والغلة عليه .

ومقالات الكتاب جميعاً تنبىء عن دراسة وافية للعوارض التى شرحها أو أجمل القول فيها ، وتدل على تأمل طويل فى موضوعاتها يستفاد من انظر والتجربة كما يستفاد من الإطلاع والمراجعة ، ولهذا خطر للأستاذ أحمد أمين مبرح زعماء الإصلاح أنها نتيجة دراسته بعد أن صاح و سواحله ، فريقيّة الشرق وسواحله آسية الغربية ودخل بلاد العرب وجمال فيها واجتمع برؤساء قبائلها ونزل بالهند وعرف حالها ، وفى كل بلد ينفذ بدرسه حالها الاجتماعية والاقتصادية وسالتها الزراعية ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة ، ونزل مصر وقام بها ، وكان فى فتيه رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجلته منيته ... نشر نتيجة دراسته فى مقالات كتبت فى المجلات والجرائد ثم جمعت فى كتابين اسم أحدهما - طبائع الاستبداد - والآخر - أم القري -

والواقع أن الكواكبى درس موضوعات الكتابين قبل رحلته لمطولة فى البلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب إلى القاهرة ، وقد عني

حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبى بالتنبيه إلى ذلك فى مقدمة الطبعة الأخيرة من كتاب أم القري التى طبعت هذه السنة (١٩٥٩ م) فقال إنه لا بد فى هذه المناسبة من الإشارة إلى حقيقة تاريخية تليق بضمه أعلى موضوع هذا الكتاب : وهى أن جدى رحمه الله ألف (أم القري) وطابع الاستبداد قبل هجرته إلى مصر ، وكان عمى الدكتور أحمد الكواكبى يتولى تبليغها ثم القري له فى حلب ، كما أخبرنى أيضاً عن حلب الثقة المرحوم الشيخ واغب الطبايع أن المؤلف أطلعه عليه قبل سفره إلى مصر ، ولما كان السيد الفرقى لم يقادر حاجب خلال مقامه فيه إلا إلى استانبول ولم يتم قبوله إلى العالم الإسلامى إلا بعد رجوعه إلى مصر ، فإن المؤتمر الذى عقد فى مكة ، ويلود عليه موضوع الكتاب . إنما هو مؤتمراً تحيله المؤلف ليعرض فيه آراءه ...

وبلأبقى هذا القول : رواء الأستاذ الفزى الأستاذ سالى كيار صاحب مجلة الحديث كما نشره فى مجلة الكتاب (سنة ١٩٤٧ م) إذ يقول :

... وقبل سفره يوم واحد زارنى فى منزلى بدمشق وأخبرنى أنه حازم ل نفسه على السفر إلى استانبول لتبديل نبتة ، أى نباته فضه وأشياء - وكنت عالماً بكتابه (جمعية أم القري) وقد شعرت منه العزم على طبعه بوضع فى نفسى أنه سيخرج على مصر لطبعه ونشره . إذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها . وحضرت من ذلك وقالت له : إياك يا أخى والسفر إلى مصر . فلما كنتى أدخلتها بدمشق عليك الرجوع إلى وطنك : لأنك تعد فى الحال من الطائفة المعروفة باسم - جوز تورك - ولا يتأخر وسمك بهبه اسمته قيس الحفظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدة المارضة وانتقاد الأحوال المظلمة . فقال : لم أعزم إلا على السفر إلى استانبول للاغرض الذى ذكرته لك . وقد كنت مر سفره حتى عن أعز أصدقائه : ثم ودعنى ومنفى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يرحمه بعين رحابته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده ، وكانت مبارحته حلب فى أوائل سنة ١٣١٦ هجرية (مكمل) .. وبعد أن مضى

على مبارحته حلب نحر بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وحدي مقلاته في
صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر تفرقة كتاب طبائع الاستبداد
الذي م يضلنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم أخرى . منه أطلعنا
عليه مراراً ، ثم إنه طبع الكتيبن المذكورين وقام لهما في الحايين
لسلطاني ضجة عظيمة وصلرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك
العثمانية .. بيد أنهما رغمًا عن ذلك كله وصلوا إلى حلب على صورة خفية
وقرأهما في سمرنا المرة بعد المرة . . .

فالدوايسة التي توفّر عليها في الكتابين كانت من مطالعته وتجاربه
ومشاهداته في حلب والآستانة وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية . وهي
كافية لمن كان في مثل بضته للإحاطة بظواهر الاستبداد وخوائيه والعلم
بأثر الاستبداد في أحوال الأمم الكثيرة التي كان من اليسير عليه أن
يتصل بها بين موطنه وعاصمة السلطنة الكبرى . وليس عليه أن يبحث
في غير تجربة واحدة ليعلم كل ما أثبتته في الكتاب من أثر الاستبداد في
الدين والعلم والجند والأخلاق والثروة وعوامل التقدم ، وذلك هي
تجربته لمساعي « أبي الهندي الصيادي » ووسائله في الاستشرى بنقابة
الأشراف ومنصب شيخ المشايخ في الدولة ، مع ذلك الجهد الذي كان يعينه
على اللعب بمظاهر الحجة ومداورات السياسة كما يشاء .

وقد صادف الكواكبي التوفيق في موعد وصوله إلى القاهرة ، فإنه
وصل إليها وهي في فترة من فترات الجماع المتدولة بين « بلدر »
و « عابدين » ولولا ذلك لتهلر نشر المقالات في صحيفة المؤيد لمن القصر
الحدبوي وهو يتحفظ غاية التحفظ في الإشارة إلى الدولة بكلمة تزييد
وشاية الجواسيس في أنهموا به الأسرة الحدبوية غير مرة من تطلع إلى
الحلانة والعمل على إثارة الفتنة في البلاد العربية ، ولكن « المؤيد »
يؤتد كان في حل من ذلك التحفظ الشديد ، ليعرب عن استياء الحدبويين
من خطة الدولة ويرويه إلى سادة « بلدر » بالمسومة على مواضع أحلاف .

ومع ذلك لم يحسن الكتب عن بعض المصاحفة عند عابدين وحاشيتة

لتهوين الأمر على الصحيفة وتيسير مقدمه في البيئة التي اختارها ولم يكن
له يد من اختيارها ، فقد حرص على هذه المصاحفة إلى أن فرغ من نشر
المقالات وأظهرها في أول طبعة فقال في تقديمها : « أقول وأنا المنظر
للاكتنام حسب الزمان » تراجى اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عن
قال ، انتهى في سنة ثمانى عشر وثلثائة وألف وجدت زائراً في مصر على
عهد عزيزها ومعزها حفصة ميمى حم النبي العباس الثاني الناشئ لولاه بخربة
عن أكتاف مكة ، فلتشت في بعض الصحف اقراء أبحاثاً عامية ميسرة
في طبائع الاستبداد ومصارح الاستبداد ، منها ما حرصه ومنها ما اقتبسه .
غير قاصد بها ظناً بعينه ولا حكومة مخصصة . إنما أردت بذلك تحية
النافين طرود الداء الدفين عسى يعرف الشريون أنهم هم المتشيدون لما هم
فيه ، فلا يعقبون على الأقيار ولا على الأقدار . . .

ولقد كان في وضع الكواكبي أن ينشر مذكّره في صحيفة من صحف
لاحتلال التي كانت يتجهز بمحاربة السيادة العثمانية خدمة لتسيده
البريطانية ، ولكنه لم يفعل ذلك تخرج عن صفته الإصلاحية الإسلامية .
وعرض نفسه لنشبات النخابة الأجنبية ، ووطن العزم على القطيعة الملتمة
بينه وبين البلاد المشمولة بسيادة الدولة والمطالبة بالولاء لها في جوارزها
وشروط الإقامة فيها والرحلة منها وإليها ، ويظهر من كتاب اسمه وتوقعه
بالغرب لأول منه أنه لم يكن قد كرس العزم على ذلك صدوره
إلى القاهرة ، وأنه أراد أن يختبر الحالة فيها حوله قبل أن يقطع بالعزم
الآخر على المسلك الذي لا رجعة فيه .

• • •

والمرجح عندنا أنه طوى كتاب طبائع الاستبداد في حلب ولم يطلع
عليه أصلاً ، لسبب غير التخرج من خطره والحمل من إفشاء غيره
لإعدت صحابه بكتبان مره . فإنه أطلعهم على كتاب أم القرى وقبه

من المخلوقات ما لا يقل من أخطر المخلوقات في كتاب طبائع الاستبداد . فقد صرح فيه بالدعوة إلى الخلافة العربية وأنكر الخلافة على بنى عثمان ورواهم بالتواطؤ مع الدول على التكتيل بمسلمي الأندلس ، ومسلمي الإمارات الأسبورية ، وقد يرد على الخاطر أنه أفضل هذه المسائل في النسخة المخطوطة واكتفى فيها بالتلميح دون التصريح وبالإشارة دون الإتهاب ، ولكن الكتاب يشتمل بعد إغفال هذه المسائل على مأخذ منكرة : أخطأ على الأمراء المستبدين ومزا فيها تخلف المسلمين إلى سائرهم وسوء سياستهم وتلبسهم على رعاياهم وتفرجهم للفسدين والدجالين من الولاة ورجال قديين ، ولم يقل عن المستبدين كلمة في طبائع الاستبداد إلا كان لما نظير في معناها ومرماها من حصول أم اقوى على السنة المسلمين الترك والعثمانيين ، وهو تصريح بالحكومة المقصودة لم يرد له نظير في شذيع الاستبداد ، إذ يتيح له عموم القول أن يعلن في تقديم الطبعة الأولى أنه لا يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصوصة .

فليت الحبيطة سر كتمان الكتاب عن أصدقائه الذين أشجعهم على كتاب جمعية أم القرى ، ولما ترجع أنه طواه عنهم لأنه لم يفرغ من وضعه في صيغة النشر والتلاوة . ووقف به عند تنوين العناوين ودروس التعليقات وإعدادها للتوسيع بـ وإفراجها في قالبها الأخير عند تقديمها للطبع أو للنشر في الصحف . ويدين ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطبعة الأخيرة بعد تتبعها فإن الاختلاف بينهما أشبه بالاختلاف بين عجلة التحضير وبين نسخة المتسمة لنشر والتلاوة . وقد ظهرت الطبعة المنقحة في ضغى صفحات الطبعة الأولى : وقال الدكتور عبد الرحمن النكراكي إنه وينشر هذا الكتاب للمرة الأولى على العالم العربي متفحاً ومزيلاً بقلم المؤلف ، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمندولة حتى اليوم .

ويروي الأستاذ مسامى الكيال عن الدكتور أحمد الكواشي ابن مؤلف أنه أخبره : بأن والده رحمه الله قد أضاف على الكتاب هذه طبعه إضافات كثيرة ، والفواش التي يحفظ بها بقلم والده ترفيع كتاباً مستقلاً عن الكتاب المطبوع وهو يتزم طبع منه نسخة قريباً ليطلع لعالم العرب على غمرة أفكار والده في الحرية والاستبداد . ويجتري في المعارضة بين الطبعة الأولى وبين النسخة التي معها ، ككرر أسماء وسنوت منه ستين - بالمقابلة بينه في موضوع وسجل على سائر المواضيع : وهو كلامه على التريسة .

في الطبعة الأولى وردت مقالة الاستبداد والحرية بالنص الذي نقل منه ما بين إذ يقول :

« خلق الله في الإنسان استعداداً لمصالح ومستعداً للفساد . فله مصلحة وأبواه يفسدانه ، أي أن التريسة قريب بمستعداده جسماً وسماً وحسناً إن غيراً فخير وإن شراً فشر . وقد سبق أن الاستبداد يستقيم يؤثر على الأحياء فيورثها لأقسام ويسطر على نفوس يفسد الأخلاق ويضبط على الدول فيمنع نماءها بالعلم ، بناء عليه تكون التريسة والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما نهيه تربية مع فطرتها يسهل الاستعداد بفوقه واستعداد الإنسان لأحد لغاته . فقد يبلغ في الكمال ما غرق مرتبة الملائكة لأنه هو الخلق الذي يعمل الأمانة وقد أتيها به العوام ، ويصعب أن تكون هذه الأمانة هي تحبير تربية النفس على الخير أو الشر ، وقد تلبس بالزنازل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحسن من استبدلين ، لأن الشياطين لا يتأزعون الله في عظمتهم ، والمستبدون يتأزعونهم فيها ، ولكن لحاجة في النفس . واستأثروا في الرقابة في يبحون عبياً لا لمرض ، حتى قد يعملون الإساءة لنفسهم .

« الإنسان في نشأته كالفصن الرطب فهو مستقيم لندن بطبعه ، ولكن أهواء التربية تميل به إلى بين الخير أو الحال الشر ، فإذا شب يمس

U. J.

وہ کہتا ہے کہ میں نے اس کو دیکھا ہے، لیکن میں نے اس کو نہیں دیکھا ہے۔

۱۵۸۰

[illegible]

١٠٠

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

• • •

١٠ لکھ روپے

۱۲۸۱
 ۱۲۸۲
 ۱۲۸۳
 ۱۲۸۴
 ۱۲۸۵
 ۱۲۸۶
 ۱۲۸۷
 ۱۲۸۸
 ۱۲۸۹
 ۱۲۹۰
 ۱۲۹۱
 ۱۲۹۲
 ۱۲۹۳
 ۱۲۹۴
 ۱۲۹۵
 ۱۲۹۶
 ۱۲۹۷
 ۱۲۹۸
 ۱۲۹۹
 ۱۳۰۰
 ۱۳۰۱
 ۱۳۰۲
 ۱۳۰۳
 ۱۳۰۴
 ۱۳۰۵
 ۱۳۰۶
 ۱۳۰۷
 ۱۳۰۸
 ۱۳۰۹
 ۱۳۱۰
 ۱۳۱۱
 ۱۳۱۲
 ۱۳۱۳
 ۱۳۱۴
 ۱۳۱۵
 ۱۳۱۶
 ۱۳۱۷
 ۱۳۱۸
 ۱۳۱۹
 ۱۳۲۰
 ۱۳۲۱
 ۱۳۲۲
 ۱۳۲۳
 ۱۳۲۴
 ۱۳۲۵
 ۱۳۲۶
 ۱۳۲۷
 ۱۳۲۸
 ۱۳۲۹
 ۱۳۳۰
 ۱۳۳۱
 ۱۳۳۲
 ۱۳۳۳
 ۱۳۳۴
 ۱۳۳۵
 ۱۳۳۶
 ۱۳۳۷
 ۱۳۳۸
 ۱۳۳۹
 ۱۳۴۰
 ۱۳۴۱
 ۱۳۴۲
 ۱۳۴۳
 ۱۳۴۴
 ۱۳۴۵
 ۱۳۴۶
 ۱۳۴۷
 ۱۳۴۸
 ۱۳۴۹
 ۱۳۵۰
 ۱۳۵۱
 ۱۳۵۲
 ۱۳۵۳
 ۱۳۵۴
 ۱۳۵۵
 ۱۳۵۶
 ۱۳۵۷
 ۱۳۵۸
 ۱۳۵۹
 ۱۳۶۰
 ۱۳۶۱
 ۱۳۶۲
 ۱۳۶۳
 ۱۳۶۴
 ۱۳۶۵
 ۱۳۶۶
 ۱۳۶۷
 ۱۳۶۸
 ۱۳۶۹
 ۱۳۷۰
 ۱۳۷۱
 ۱۳۷۲
 ۱۳۷۳
 ۱۳۷۴
 ۱۳۷۵
 ۱۳۷۶
 ۱۳۷۷
 ۱۳۷۸
 ۱۳۷۹
 ۱۳۸۰
 ۱۳۸۱
 ۱۳۸۲
 ۱۳۸۳
 ۱۳۸۴
 ۱۳۸۵
 ۱۳۸۶
 ۱۳۸۷
 ۱۳۸۸
 ۱۳۸۹
 ۱۳۹۰
 ۱۳۹۱
 ۱۳۹۲
 ۱۳۹۳
 ۱۳۹۴
 ۱۳۹۵
 ۱۳۹۶
 ۱۳۹۷
 ۱۳۹۸
 ۱۳۹۹
 ۱۴۰۰
 ۱۴۰۱
 ۱۴۰۲
 ۱۴۰۳
 ۱۴۰۴
 ۱۴۰۵
 ۱۴۰۶
 ۱۴۰۷
 ۱۴۰۸
 ۱۴۰۹
 ۱۴۱۰
 ۱۴۱۱
 ۱۴۱۲
 ۱۴۱۳
 ۱۴۱۴
 ۱۴۱۵
 ۱۴۱۶
 ۱۴۱۷
 ۱۴۱۸
 ۱۴۱۹
 ۱۴۲۰
 ۱۴۲۱
 ۱۴۲۲
 ۱۴۲۳
 ۱۴۲۴
 ۱۴۲۵
 ۱۴۲۶
 ۱۴۲۷
 ۱۴۲۸
 ۱۴۲۹
 ۱۴۳۰
 ۱۴۳۱
 ۱۴۳۲
 ۱۴۳۳
 ۱۴۳۴
 ۱۴۳۵
 ۱۴۳۶
 ۱۴۳۷
 ۱۴۳۸
 ۱۴۳۹
 ۱۴۴۰
 ۱۴۴۱
 ۱۴۴۲
 ۱۴۴۳
 ۱۴۴۴
 ۱۴۴۵
 ۱۴۴۶
 ۱۴۴۷
 ۱۴۴۸
 ۱۴۴۹
 ۱۴۵۰
 ۱۴۵۱
 ۱۴۵۲
 ۱۴۵۳
 ۱۴۵۴
 ۱۴۵۵
 ۱۴۵۶
 ۱۴۵۷
 ۱۴۵۸
 ۱۴۵۹
 ۱۴۶۰
 ۱۴۶۱
 ۱۴۶۲
 ۱۴۶۳
 ۱۴۶۴
 ۱۴۶۵
 ۱۴۶۶
 ۱۴۶۷
 ۱۴۶۸
 ۱۴۶۹
 ۱۴۷۰
 ۱۴۷۱
 ۱۴۷۲
 ۱۴۷۳
 ۱۴۷۴
 ۱۴۷۵
 ۱۴۷۶
 ۱۴۷۷
 ۱۴۷۸
 ۱۴۷۹
 ۱۴۸۰
 ۱۴۸۱
 ۱۴۸۲
 ۱۴۸۳
 ۱۴۸۴
 ۱۴۸۵
 ۱۴۸۶
 ۱۴۸۷
 ۱۴۸۸
 ۱۴۸۹
 ۱۴۹۰
 ۱۴۹۱
 ۱۴۹۲
 ۱۴۹۳
 ۱۴۹۴
 ۱۴۹۵
 ۱۴۹۶
 ۱۴۹۷
 ۱۴۹۸
 ۱۴۹۹
 ۱۵۰۰
 ۱۵۰۱
 ۱۵۰۲
 ۱۵۰۳
 ۱۵۰۴
 ۱۵۰۵
 ۱۵۰۶
 ۱۵۰۷
 ۱۵۰۸
 ۱۵۰۹
 ۱۵۱۰
 ۱۵۱۱
 ۱۵۱۲
 ۱۵۱۳
 ۱۵۱۴
 ۱۵۱۵
 ۱۵۱۶
 ۱۵۱۷
 ۱۵۱۸
 ۱۵۱۹
 ۱۵۲۰
 ۱۵۲۱
 ۱۵۲۲
 ۱۵۲۳
 ۱۵۲۴
 ۱۵۲۵
 ۱۵۲۶
 ۱۵۲۷
 ۱۵۲۸
 ۱۵۲۹
 ۱۵۳۰
 ۱۵۳۱
 ۱۵۳۲
 ۱۵۳۳
 ۱۵۳۴
 ۱۵۳۵
 ۱۵۳۶
 ۱۵۳۷
 ۱۵۳۸
 ۱۵۳۹
 ۱۵۴۰
 ۱۵۴۱
 ۱۵۴۲
 ۱۵۴۳
 ۱۵۴۴
 ۱۵۴۵
 ۱۵۴۶
 ۱۵۴۷
 ۱۵۴۸
 ۱۵۴۹
 ۱۵۵۰
 ۱۵۵۱
 ۱۵۵۲
 ۱۵۵۳
 ۱۵۵۴
 ۱۵۵۵
 ۱۵۵۶
 ۱۵۵۷
 ۱۵۵۸
 ۱۵۵۹
 ۱۵۶۰
 ۱۵۶۱
 ۱۵۶۲
 ۱۵۶۳
 ۱۵۶۴
 ۱۵۶۵
 ۱۵۶۶
 ۱۵۶۷
 ۱۵۶۸
 ۱۵۶۹
 ۱۵۷۰
 ۱۵۷۱
 ۱۵۷۲
 ۱۵۷۳
 ۱۵۷۴
 ۱۵۷۵
 ۱۵۷۶
 ۱۵۷۷
 ۱۵۷۸
 ۱۵۷۹
 ۱۵۸۰
 ۱۵۸۱
 ۱۵۸۲
 ۱۵۸۳
 ۱۵۸۴
 ۱۵۸۵
 ۱۵۸۶
 ۱۵۸۷
 ۱۵۸۸
 ۱۵۸۹
 ۱۵۹۰
 ۱۵۹۱
 ۱۵۹۲
 ۱۵۹۳
 ۱۵۹۴
 ۱۵۹۵

المستخرج من نسخة محفوظة في مكتبة جامعة القاهرة

[illegible]

• איך צו באקומען אן אידן • אן אידן צו באקומען •

[illegible]

: יצאנו בלילה הזה לדרך : ונחמנו את ישראל

.

وإنما يصدق وصف الاقتباس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبي في المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به في كلامه على التخلص من الاستبداد ، (فتوريو ألفيري) ، الذي أورد اسمه تحت المشور في قسوله : « لهذا أذكر المستبدين بما أنارهم به لفيارى المشور حيث قال : لا يفرح المستبد بمظيم قوته ومزيد احتياطه . لكم من جبار عياله جندله مظلوم صغير » .

ولابد أن يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المنار ممن ينسبون أفكار الكواكبي إلى « فيلسوف إيطالي » معروف ، فإنه صاحب أشهر كتاب من الاستبداد ظهر في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٧٧) ، وشاع بعد ذلك أياما شيوخ بين أبلى الثوار الإيطاليين ، ولا سيما جماعة الكربورارى - الفحامين - الذين أسسوا جماعتهم السرية معارضة لجماعة البائير أو الماسون ، وتمزب أعضاؤها إلى كل مكان بغشاء الإيطاليون في موانئ البحر الأبيض ومدن الشرق الأدنى ، ومنها مدينة حلب التي كانت « مركزاً مهماً » لتجار البندقية والمتكلمين باللفسة التوسكانية ، وأوى إليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين منذ راجت لها حركة التجارة على طريق المنسب والأنطار الآسيوية .

وبين الكواكبي و « ألفيري » شبه قريب في السيرة والمنزع وظروف الحياة : فكلاهما تعود الرحلة في طلب المعرفة بأحوال الأمم ، وكلاهما اضطر إلى الكتابة في ظل الرقابة ، وكلاهما نزل مخاضاً أو مضطراً عن نومه وعطائه ، وزاد « ألفيري » فأسلم ما بقي له في الثروة إلى أخته لتسلمه منها نفقته التي يحتاج إليها ، وغبة منه في التفرغ لقرعة والكفاح بالقلم والدعوة المسابية .

وكتب « ألفيري » مقالاته عن الاستبداد Della Tirannide فظهر فيها أثر اطلاعه على « روسو » و « مونتسكيو » و « ميكافلي » من قبل ، ولم يظهر فيها مذهب خاص يجيز للتسائد أن يصفه بالفيلسوف .

كما وصفه القائلون بأن الكواكبي نقله بحروفه واعتمد عليه في تفصيل آرائه .

والشبه بين رؤوس الموضوعات باد من النظرة العابرة إلى صفحات الكتبتين قد كتب ألفيري في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد : ثم كتب عن الخوف والتملق والطموح ، ووزراء المستبد . ثم كتب عن الانحلال والدين والمقابلة بين الاستبداد القديم والاستبداد الحديث وعن الشرف المزيف والحد الكذب وعن نفوذ الزوجات في عهد الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لا تحس الخفيان وعن الحكومات التي تركز إليه ، ونظر في جميع هذه الموضوعات إلى أسوار الأمم الأوروبية على خلاف منهج الكواكبي في النظر إلى الأمم الشرقية والتعدي في وصف أحوالها ، مما يجيز لنا أن نقول إن مؤلف أم القرى كان خليفاً أن يكتب آرائه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الإيطالية .

ويستدل الأستاذ أحمد أمين : كيف وصلت الرسالة الإيطالية إلى علمه ؟ وهو مؤيد لا جواب له غير الحيرة إن لم تكن للكواكبي وصيلة أخرى لعلم « ألفيري » غير العلم بلغته . إلا أننا نعلم من « طائع الاستبداد » إن « ألفيري » كان مشهوراً عند الكواكبي في زمانه ، ونعلم أن هذه الشهرة لا تستغرب مع كثرة الإيطاليين في حلب ورغبة الكواكبي في الاستفادة من معلومات أصحابه الأوربيين المتفقيين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في أعماله وأعمالهم ، وقد كان اسم « إيطاليا الفتاة » على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانيين ومنهم جماعة « تركيا الفتاة » الذين استماروا منهم من اسم الجماعة الإيطالية : وقد كان الإيطاليون يسعون في تلقين دعوتهم ولا ينتفرون من سماعها . وكانوا ينتشرون في سواحل البحرين الأبيض والأحمر وينشرون فيها أندبيهم السرية التي تنسب إلى طوائف الفحاميين وتحاول أن تتراسم في « باديي السياسة طوائف الماسون - أو البنايين الأحرار - التي غلب عليها في

الإيطاليين ويسمع بثورتهم ويسمع أن ثوار الترك يستعبدون منهم تنظيم حركتهم ، ويسألهم ولا شك عن كتبهم « المشهور » ، ويتلقى منهم بيان عنه بغير سؤال .

وما كانت الشبهة أن اتصال الكواكبي بالإيطاليين قليل لا يسمح بهذه المعرفة ، وإنما الشبهة أنها كانت تزيد على اللازم هذه المعرفة ، حتى يحصر بعضهم أنها تمتد من الصعبة إلى التواطؤ على السياسة الخفية ، فلولا المصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكبي ولم تقع بختياويلا بتدبيره لاستعصى على المدافع عنه أن يدحضها بغير حسن الظن وصدق تفراسة .

« حدث في يوم ما أن تفصل دولة إيطالية في حلب - السبور أريكو ريتو - بينما كان راجعا عربته ، مرأى في حلة الجنوم ، التي هي حلة السيد عبد الرحمن الكواكبي ، إذ وقع على ظهره حجر عثر صدمه صدمة حيفة تألم منها جدا . بحيث اضطرنه أن يعود إلى منزله وأن يرصد إلى الوالي تقريراً يطلب به منه لبحث عن مصدر ولإجراء العقوبة القانونية . هذه الحادثة فتحت ثلث الوالي باباً يفتح منه إلى إلصاق هذه الجريمة بالسيد الكواكبي : لا سيما وقد كانت الحادثة في علته وعلى مقربة من داره ، وفي الحال أوعز له بعض شيائمينه بأن يرفع إليه تقريراً يحوى أن الكواكبي منضم إلى عصبة أرمنية . وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة - وأنه قبل يومين أغرى بعض الدس فرشق على نفسه لـ «أيا حجراً أصاب ظهره ، محاولاً بذلك إحداث ثورة بين الأرمن وانسحابهم لحلب ... وفي الحال أصدر الوالي أمره بالقاء القبض على الكواكبي وزوجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوقاً وأجلس على كرسي المحكمة لإصدار الحكم عليه » .

ريستوي اتهام الكواكبي في هذه القضية وبرائه منها في تكذيب الوالد الدين رحيم بالظن فجاءه صنيعة الإيطاليين . فإن الصنيعة لا يسع حقائق المزعومون إلى الحريث وهم ينظرون .

الشرق نفوذ الإنجليز والفرنسيين ، ومن تاريخ الكواكبي بعد الهجرة من حلب إنعلم أنه كان يتيقن بؤكلاء الحكومة الإيطالية في شواطئ بحر العرب وينتقل على إحدى السفن الإيطالية بإذن من أولئك الوكلاء ، وليس بالعمير بعد ذلك أن يعرف الكواكبي شيئاً عن الكاتب الإيطالي « المشهور » كما وصفه في كلامه ، وأن لم يرؤوس الموضوعات التي طرقتها في رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بمكافحة الاستبداد منذ صباه ، وأن يعارض تلك الرسالة بما يقابلها معارضة الشاعر للشاعر في القصيدة المأثورة لديه ، ولا يقل منه شيئاً هذه المعارضة غير اورن والثاقبة . أو غير العنوان والمناسبة .

ونحن نرجح هذا الاحتمال على قول بعض المعاصرين إن الكواكبي اطلع على ترجمة تركية لطبائع الاستبداد من عمل كاتب من أحرار الترك المهاجرين إلى ميسرة بسى « عبد الله أمين » ، فإننا نشك في ذلك لأن مثل هذه الترجمة لا تطبع يومئذ في البلاد العثمانية ، وإذا طبعت في مصر فلا بد أن تكون متناولة معبره بين العثمانيين أصحاب الكواكبي فلا يهمل ذكرها ولا يختلف الباحثون في أمرها عند السؤال عن مصدرها ولا يخفى حيفة هذا الأمر على غثار باشا الغازي وهو وكيل الدولة العثمانية السئول عن أخبار هذه المنشورات التي تراقب الدولة .

وأصاب السيد ريتو دوماً إذ قال ان صاحب طبائع الاستبداد لا يكتبها قلم أوربي ولا يقتبسها شوقي من المراجع الأوربية ، وتزيد على هذا أن « القيبري » نفسه لا يستطيع أن يصور عناصر الاستبداد كما صورها الكواكبي من رحي تجاربه وتاملاته في البلاد العثمانية وفي بلده وإقليمه بصفة خاصة ، لأنه يحمل « مصورة » ثرية ما ينع عليه حب ولا ثرية ما لم يشهده بعينه .

لذا كان جهل الكواكبي بالإيطالية يبعث على استغراب علمه . بالقيبري ، فإن جهله هذا الكاتب خاصة هو الغريب من رجل يعاشر

شخصية مكونة

« كان مربع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أنفى الأنف ، وسع الجبين ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة ، لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، أزج الحاجبين ، صغير أطراف ، معتدل الجسم بين الحسن والمزك ، أسود الشعر ، قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى جهة مصر » .

مكننا وصفه صلجته الأستاذ كامل الغزي ، ووصفه الأستاذ إبراهيم سليم النجار ، وهو ممن عرفوه وصحبوه فقال : « كان ريع القامة تميل إلى الطول قليلا ، أبيض الوجه يياضاً مشرباً بشيء قليل من الحمرة ، شأن سكان البلاد الباردة ... وقد لحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ، مدفها الشيب خيوطه » .

ووصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : « كان دبة إلى الطول أقرب ، قوى البنية ، صحيح الجسم ، حصبى المزاج بنان ، أشهل العينين ، أزج الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصدر ، أسود شعر لرأس والذقن ، متأنق في لباسه ، يتكلم بجمهر هادىء وسلاسة وإتقان ، يحسن السباحة والصيد والفروسة ... » .

وسمعنا وصف صحاباء ومكانته لعلبة من عشره : كما قرأنا هذا الوصف بقلم مترجميه ، فرأيناهم يفتقون على سجايا خلقه وملكات عقله إتفاقهم على سمته وتكوين جسده ، كأنهم ينظرون إلى ملامح محسوسة لا تخطئ العين رؤيتها ولا يختلف الناظرون إليها في وصفها : فما من ترجمة له لم تبرز في الكلام عليه صفات الوقار والحلم والنفط والتجدة وعفة اللسان وحسن الملاحظة وحيدق الإرادة ، وكأنما ثبتت

هذه الصفات في نفوس حارفيه ، لأنها تجاوزت أن تكون صفات مقنونة وأصبحت أملا منكورة يؤيد بعضها بعضاً فلا يتساها من رأيا وسمع بها وبآثارها . وهى قد أصبحت فعلا في عباد الأعمال المشهودة ولم تبق في حيزها من عالم السجيا والأخلاق ، وصنحت لها منادح الظهور والبيوت برات في جملة الوظائف التي عمل فيها فكان في كل منها أمين الجهر والسر جبراً بعمله غيوراً على الضمير حريصاً على واجبه منطوقاً بما يريد من التوجب كلم دعه إلى ذلك دوائى النجدة والإنصاف .

ثم خلا من أعمال الوظائف فكانت بطالته في عرف الحكومة أدعى إلى إبراز تلك لسجايا والملكات من كل وظيفة تولاها ، إذ كان يشغل وقته بالتطوع خضع المعالم وإبلاغ الشكايات وتمحيص الأسانيد والنهوض بتكليف الرتبة وأعباء الوكالة الموروثة التي ألقاها على عاتقه مكانه من العلم والوجاهة ومسبق الخبرة بولاية أعمال الناس ، وافتتح لهذه الأعمال مكتباً مستعداً منفرج الأبواب لمن يقصدونه بغير جزاء ، بل يحصل النفقة أحياناً عن أصحابها الذين يعيهم حملها من ذوى الحاجات .

لاجرم ينق وصفوه على سجاياه وملكاته ، بل على صفاته وقدره . كنهفهم على ملامحه وسماته ، فلما ملامح مشهودة وصفات تجاوزت حيز الظنون إلى حيز الأعمال .

مرجع ذلك إلى أننا هنا أمام « شخصية مكونة » قام بكيانها اثنين على أسس عميقة من عوامل بينها وأسرتها وظروف زمانها وظروف حياتها وماتر مقوماتها وعناصرها وتكاد كل صفة من صفات الكواكب تنسب إليه فلا تعجب لاتصافه بها ولا تنقب طويلا حتى نجد تفسيرها كليا مائلا في حامل من تلك العوامل المتأصلة في ظروف زمانه أو ظروف مكانه .

رجل ينشع إلى قلب دولة وإقامة دولة من طريق الدعوة . لى تعجب أن يتطلع إلى ذلك رجل يعلم أن سلفاً من أسلاف أمرته أقام الدولة الصغوية من طريق الصومعة والمدرسة في بلاد غربية عن

بلاده ، وأن النبوة التي يريد أن يفلحها قد تزعزعت في موطنه ولم تعد إليه بعد فترة إلا وهي على حال من الزعزع لا تؤخذ بالذم ؟

رجل دائم الشعور بعرويته شديد الغيرة على تسمته العربية .

أي عجب أن يكون كذلك من يرجع إلى تاريخ بلده من قبل إبراهيم عليه السلام فيعلم أنها عربية ولم تزل عربية تحس عروبها كلما أحست أنها « ثمان من أجل هذه العروبة وتظلم في سبيلها » ؟

رجل يتصدى للجهاد في هذا السبيل ويهتض بأمانة الإمامة فيه ولا يلتبس لنفسه العلو في التخلف عنها .

فأي عجب أن إمامة لرجل توارث الإمامة في بيته فضله قبل أن يطلبها .

ورجل يحرف الاستبداد فلا يصبر عليه ولا يستقر معه على قرار . فهل من عجب أن يكون كذلك مصاب بعصف الاستبداد في سره وفي تراث قومه وفي حقوق مشيرته وأنه وأقرب الناس إلى جواره .

وإنه ليعلم أثر الاستبداد في الدين والدنيا ، فأى عجب في هذا الملم وهو لا يتطلب منه إلا أن يعلم كيف توصل الكذبة من رجال الدين إلى اغتصاب حقه وحق بيته ، وكيف يختلسون النب وأحب ويزيفون الشعائر والشرائع ليستمروا من ثم إلى مجالس المنارة في الدين والدنيا وبين الرعية والرعاة ؟

ورجل يتحفر للثورة ، فأى عجب في ذلك وهو يعيش في عصر الثورة ؟

ورجل يتصل بالعالم في زمانه فلا تحقق عليه خافية من أخطاره وخطوبه ، فأى عجب في ذلك وهو في بلد تلتقي عنده طرق العالم ولا يقطع عنها أو يقطع عنه لوارثون إليه والطارئون عليه في سنمه وحربه ؟

رجل واحد يثبته المروءات لرسائله ولم تنذب لها أحداً غيره .

وصال
بها في شهر
صاحب المنة
لمسلمين إليه
لعبة - تر
حال لسوء
وسواحل آه
العرب التي
الخيطة الممتدة
بالأمراء وش
البلاد لثراء
وقد انتهى
له في عود
السياسي في
إفريقية الش
الإفرنج وك
الرحلة إلى
الأمان والعر

وقال ا
التاسع عشر
رحل رحلة
أنه أوغل في

فأى عجب في ذلك وهو الذي نبأ تلك الرسالة بالاستعداد لها وتقدم عليها والشعور بتوافرها والعجز عن إغفالها والإغفاء عنها .

• • •

وقد نجد الكواكب لرسائله وتفردها في بيته لأن هذا الاستعداد الموروث منذ أقدم يسائده استعداد خاص به من فطنه وخلقه ومطالعة وبراعته النفسية . فلا تكنه النقطة وحدها لأن النقطة لا تقدم ولا تؤخر ما لم تمدها الخلائق التي تمسح على الشدة وتقدم على عارف وتضطلع بتكاليف النجدة والمروءة . ولا تغني النقطة وأحق بعير الواعث التسمية التي تثير الضمير وتستجيش الخاطر ، وبغير بيان الذي استضاه من دراسة وإطلاعه وحس إصغاته إلى قوى المعرفة وخبرة من محبة . ومن المصادفات النادرة أن يجتمع ذلك الاستعداد موروث من أقدم وهذا الاستعداد الخاص بصاحبه لأكثر من تابع واحد في حقبة واحدة . وهو كان لا يريد الدعوة الأولى على سنة الطبيعة من التقص في غير ضرورة فسرف والزبادة .

• • •

والشخصية المكونة المنورة لرسائلها هي هذه الشخصية التي تدونت فيها العوامل هذا التعاون بين حديث وقديم وبين خاص وعام . وحتى هذا التكوين بقيت « شخصية » الرائد الذي كتب « أم القرى » و « طبائير الاستبداد » .

كان الرجل قضية حية مثقفة المقدمات ، النتائج .

كان شخصية قوية حلبة لا موضع فيها لغدوض أو ثواء .

« فتحها إذا التفتنا المفتاح لهذه ضروبها أنها « شخصية عزيزة قوم بغضب بكرامته وكرامة قومه » .

وإن أن نفس هذا الشراح كل سر فيها من سرار العمل لو أسرار اليات .

• • •

في مصر

وصل الكواكبي إلى مصر في منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفي بها في شهر يونيو سنة ١٩٠٢ وتخلل هذه الفترة رحلتان : قال صديقه صاحب المنار عنهما : « إنه وجه مهمته أخيراً إلى التوسع في معرنة حال المسلمين ليس في الإصلاح على بصيرة : فبعد اختباره التام لبلاد الدولة العلية - تركها وعربها وأكرادها وأرضها - ثم اختبار مصر ومعرفة حال السودان منها ، ساح منذ سنتين في سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية : ثم أتم سياحته في العام الماضي فاختار بلاد العرب التي كانت موضع ألمه ثم الاعتبار . فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي وما زال يوغل فيها حتى دخل في بلاد سورية واجتمع بالأكراد وشيوخ القبائل وعرف متعلقاتهم الحربي والأدبي وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيراً في مبادئها حتى إنه استحضر نموذجاً منها . وقد انتهى في رحلته الأخيرة إلى كراچی في موافاة الهند وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السامي في مسقط ، فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقيا الشرقية ، لتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختباراً سبق به الإفرنج وكان في نفسه رحلة أخرى . يضم بها اختباره للمسلمين وهي الرحلة إلى بلاد الغرب ولكن حالت دونته المنية التي تحول دون كل الأمان والغرائم . . . »

وقال الأستاذ جورجى زيدان في كتابه عن مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر عن رحلته : « وما يذكر له وناسف لضياع ثماره أنه رحل رحلة لم يسبق أحد إليها ويتلذذ أن يستطلعها أحد غيره . وذلك أنه أوغل في أواسط جزيرة العرب ، فأقام على متون الجمال نيفاً وللاثنين

يوماً . فقطع صحراء الدهناء في الجن ولا تلمى ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فعمى أن يكون ذلك محفوظاً في جنة متخلفاته . وتحول في هذه الرحلة إلى الهند فشرق إفريقيا أيضاً وكان أجله ينتظره فيها .

والمؤرخ الحلبي الأستاذ الغزالي ، وهو صديق الكواكبي . يذكر هذه الرحلات فيما كتبه بمجلة الحديث ويشير إلى إشاعة القائلين إن الخديوي عباساً استدعاه ليقوم بالدعاية للحلقة المصرية وليسعى إلى الشيوخ وسريان الإمارات في ذلك . ويروي أنه جاءه كتب من فضل إيطاليا لـ حديلة بلين - وهو من أسرة اصولا بحلب يسمى فرديةند ميخائيل . فذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبي أثناء هذا الطواف . . . »

ولا تنفصل هذه الإشاعة عن إشاعة أخرى فحواها أن لائحة الإيطالية يسرت له الرحلة لأنها كانت تطمع في نجاح المسمى إلى خلع الخلافة التركية منذ ترجعت محاولاتها الاستعمارية إلى شواطئ البحر لعلها تنفذ من مصادقة الخلافة العربية المنتظرة بعد إقامتها على مشربة من مناطق نفوذها .

ولابد لكل ملتفت إلى هذه الإشاعة أو تلك من تفسير لتناقض بين العمل للخديوي عباس والعمل للإمامة العربية القرشية ، فإن عباساً لا يتلذذ المال لمن يسعى في إسباط سماء وإشراق سماء عليه ، ولا مصلحة لمرته الإيطالية في إقامة الخلافة بأرض يحتلها الإنجليز ويسيطرون بها على شواحي البحر الأحمر من شمالها إلى جنوبها ، وليس ارتباط الأمرين إلا للكين في إيطاليا ومصر كائناً لحمل الدولة الإيطالية على اتباع هذه السياسة . فلا بد إذن من تفسير الفاطم للظنون بين قلوب لا يتفقان ، وإن اتفقت في شيء واحد وهو حرب الخلافة العثمانية .

• • •

(١) مجلة الحديث (١٩٠١) ، وكتاب « عبد الرحمن الكواكبي » الدكتور داني اددان .

أما اتصال الكواكبي بالخديو عباس فيكنى في تفسيره أن الكواكبي قد وصل إلى القاهرة خلال أزمة من الأزمات لمستحكمة بين «عائدين» و «بلند» وبين «عائدين» و «نقابة الأشراف» التي كان «أبو الهدى الصيادي» يتولاها في خاصمة الخلافة، فلا خرابة في اتحاد الحلقة بين الخديو وبين صاحب طبائع الاستبداد في تلك الفترة. ولا في التحالف بينهما على تقاع الشر من دمائهم «بلند» و «دسائس» و «نقابة الأشراف» في أونة واحدة.

وكانت هذه الفترة من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٢ أصلح الأوقات لانفتاح الكواكبي في مساعيه بزيارة القاهرة. فإنه استطاع أن ينشر مقالاته في «المؤيد» صحيفة الخديوي الشبيهة بالرحمة، ولولا ذلك لاضطر إلى الكتابة في الصحف المنهية بخدمة الاستعمار تعصباً من الدول الأوروبية على دولة الخلافة، ولم يسلك هذا الطريق داع من دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي إلا أنثرت به السبل من خطواته الأولى.

ومضت هذه السنوات والخديوي عباس يفاوض الآستانة وبأى أن يقصد إليها في رحلة الصيف قبل أن يفلح رسمه إليها في تسوية المشاكل المعلقة بين بلند وعائدين، ومنها مشكلة قضى مصر من قبل الآستانة ومشكلة جزيرة «ملبروز» التي اسردها لسلطان من الأمراء الخديوية. ومشكلة الصحافة التي تحمل على الدولة ويصرح الممثلون في القصر السلطاني بانتمائها إلى الخديو، أو بإد الخديو إلى الأمن يقصر في استبعاد نفوذه لإمكانها، وقد غضب الخديو غضباً شديداً يوم علم أن حاشية السلطان اتصلت بالسفارة الإنجليزية تأسفاً أن تتوسط عند الوكالة البريطانية في القاهرة لكف الحملة على السلطان في محققها العربية والأجنبية. وقد سافر أحمد شفيق باشا إلى الآستانة في حجة أو والده للاحتجاج عن ذلك وعلى غيره من مسئلة الخلاف بين الأمير الذابغ والسلطان المتبوع.

قال شفيق باشا في مذكراته - أول مايو سنة ١٨٩٩ - إنه أثناء

هذه المسألة في حديثه مع باشكاتب المابين وتبلغه أن الخديوي يشعر بالإغضاء عنه في عدة مواقف آخرها أن المابين قصد إلى الحكومة الإنجليزية ليشارك إليها عدوان صحيفة من هذه الصحف تصدر في مصر. كان الخديو وكبل للسلطان الشرعى غير موجود.

وشاعت أخبار هذه المشاكل في الدوائر السياسية بالآستانة فاستطلع اشغراء أسرارها ونمحت غير واحد منهم إلى شفيق باشا عن حقيقتها، ولا سيما سفراء الدول التي كانت تقاوم الاحتلال البريطاني ومنها يومئذ فرنسا وألمانيا وروسيا. قال شفيق باشا: «وفي اليوم التالي زرت سفير فرنسا فسألني عن سفر سمو الخديو للآستانة فأشرت إليه بأنه قد لا يأتي في هذا العام نظراً لأشياء لا تشجع سموه على الزيادة، ولما سألتني عن بلطاج أخبرته موجزاً بمسألة الصحف فقال لي في النهاية إن كل شيء يزول عند وجود سموه بالآستانة. ثم قال: إنني سأنتظر كل فرصة وأعرف سلطان بالحقيقة وأكرر عليه ما سبق أن قلته وهو أن من صالحه أن يجعل الخديو راضياً. لأن سموه لو خلع الطاعة لأوقع الخليفة في نوبك عظيم».

ثم قال: «وزرت السفارة الروسية فقابلني مكسيموف الوجيهان لأول وله نفوذ عظيم في المابين ورحب بي وقال لي إنه علم بمسألة الصحف لما وقع...».

ومعنى شفيق باشا بقول: «... ثم ذهبت إلى المابين فلم ألق جديداً، وهناك قابلت نجيب بك محبة - القوميسر العالي للدولة في البلغز - ففعلها بعد قليل، ودرت بيته أحاديث أخبرني خلالها أن جماعة أبي نفدي أرادوا اجتذابه بحوم: فطلبوا منه أن يرسل تقريراً ضد أخضرة الخديوية وكان الوساطة في ذلك كريم أنندي صاحب جريدة تركيا التي تطبع في مصر. ولكنه أخط الأوراق التي تثبت ذلك ورعها للسلطات فحصلت له الإفادة بحفظها عنده...».

١٠ : مجلس العلماء في تونس

וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה אֲנִי וְאַתָּה וְכָל יִשְׂרָאֵל
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה אֲנִי וְאַתָּה וְכָל יִשְׂרָאֵל

[illegible]

אברהם בן יצחק בן יהודה

[illegible]

- 111 -

פ' א' ב' ג' ד' ה' ו' ז' ח' ט' י' י"א י"ב י"ג י"ד י"ה י"ו י"ז י"ח י"ט
 כ' כ"א כ"ב כ"ג כ"ד כ"ה כ"ו כ"ז כ"ח כ"ט ל' ל"א ל"ב ל"ג ל"ד ל"ה ל"ו ל"ז ל"ח ל"ט

• *בְּיָמָיו* לְמַלְכּוּת הַמֶּלֶךְ הַזֶּה וְהַיָּמִים הַזֵּה

[illegible][illegible]

וְאֵלֶּיךָ יְיָ אֱלֹהֵינוּ יָשׁוּב וְנִשְׁכַּח
 וְנִשְׁכַּח וְנִשְׁכַּח וְנִשְׁכַּח וְנִשְׁכַּח וְנִשְׁכַּח

۱۰۰۰... انہی کے لئے اور ان کے لئے

[illegible]

• 1990年12月1日

וְהַיְהוּדִים יִשְׁמְרוּ אֶת הַמִּצְוֹת וְהַכֹּהֲנִים יִשְׁמְרוּ אֶת הַמִּצְוֹת
וְהַיְהוּדִים יִשְׁמְרוּ אֶת הַמִּצְוֹת וְהַכֹּהֲנִים יִשְׁמְרוּ אֶת הַמִּצְוֹת

[illegible]

موقد اتصلت بمساع السطان عبد الحميد ، وعمل النور أصدر إرادته إلى السيد عبد القادر التبانى - صاحب جريدة نمرات القنون التى كانت تصدر فى مدينة بيروت - لأن يهبط صريحا ويتعهد بحل إقامة أحمد ويحرز جميع ما يجاء من الأوراق ويرسلها إلى الملبين . . .

وما كان أحد فى ذلك العصر ليشتبه هذه النملة وأمانا على المنهين بها ، ولكن تحقيق الخبر لتاريخ لا يتكفى فيه نظرة السوء ، وأرجح الأقوال فى هذا انبا ما كتبه الأستاذ محمد لطفى جمعة فى مجلة الحديث (١٩٣٧) إذ يقول إنه : ذهب ضحية ذممة صربية ، . . ويؤيد هذا القول ما شعر به الفئيد من أعراض النبعة كوجع الذراع وألم الجنب الأيسر ، وما جاء فى النبأ الأخير عن إصابته بنوبة قلبية خفيفة تلتها نوبة الوفاة ، وربما كان للإعياء من أثر الذى فعله فى تحريك عوارض انوبة وتعجين القضاء احتوم .

وما كان باليقين الذى لا غش فيه ، إلا ضحية الخيانة والظلم ليا تحيان من داء يفعل فى النفوس ما تفعله السموم فى الأبدان

. . .

وضريحه بالذهرة فى مثواه الأخير بباب اوزير ، نقلته إليه بصلحة التنظيم بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة ، وعلى صفحته المرمرية هذان البيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التسقى هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
حقنوا راقموا أم الكتاب وسلموا عليه فهما القبر قنبر الكواكب

. . .

الكتاب الثانى

برنامج إصلاح

فكر الكواكبي كثيراً . وأطلق التفكير . في جميع المسائل التي
بنى عليها دعوته إلى الإصلاح ، وهي دعوة محبة بشئون الشرق لإسلامي
في زمنه على الإجمال ، وشئون الشرق العربي على الخصوص . وبحث
من الدورات التي توجه إلى ناحية واحدة أو تنحصر في جزء من أجزاء
الحياة العامة التي تتفرق العناية بها بين فئات من المصلحين .

وقد سجع في دعوته منهج العلم التجريبي أو الفلسفة العملية . ففكر
في جميع تحليل وقدر جميع الوجوه . واعتد به بحث في ثلاث تحليل من
ناحية التي وقائية الإثبات ، فلا يزال بالغة القدرة بفتح أعراضها
ويستقص آثارها ويرى أين مكان الصواب في تطبيقها على الواقع
وتفسيرها بالرأي ، وأين مكان النقص الذي تنحصر فيه عن تفسير الواقع
وموافقة الأحوال .

ويبدو لنا منهجه في التفكير والمراجعة من أسلوب كتابه اللذين عرض
فيهما آراءه في علل الضعف وشفعها بما يقترحه لعلاج ذلك الضعف والوقوف
به عند غده واستقصاء أسبابه ودوائيه .

فوق في كتابه أم تقرأ ويختار أسلوب المسححة بين طائفة من
أصحاب الآراء ليعرض على لسان كل منهم وجهة نظر يشرحها من جانب
ويشلق الرد عليها من الجانب . ومنهم من يعلى الضعف بالجهل ومن يعله
بالفقر أو يعله بالاستبداد أو يعله بالخور والجن وفساد الأخلاق ،
أو يعله بالثواكل والتسلط المتفادير ، ومنهم من يلقى انتبة فيه على الأمور
أو على لعماء أو على الخاصة دون العامة ، أو على العامة دون الخاصة ،
ويعدد باللائمة قادة على السامعين وقادة على أعملاء الإسلام . ثم يراءى

لنأري من بين مطارح الأفكار ومناهب الحوار مبلغ كل علة من لأثر ومبلغ كل أثر من لأصالة في الضرر ، ومبلغ الاشتراك بينها في التأثير ، وأنها أحق بالابتداء وأحق بالإرجاء .

ولما يطلق الفريء في الواقع على رأى مفكر واحد يذهب بالنظر في شتى مذاهبه ويراجع نفسه فيها بمن له من خواطره التي طرأت له فامتنعها وثبت عليها أو عدل عنها .

أما أسلوبه في كتاب « طبائع الاستبداد » فهو أسلوب لتفسيح واستيفاء الكلام على كل موضوع من الموضوعات ، أخذاً ورداً ، وشرحاً واستدراكاً ، ونقلياً للفكرة على وجوها ، كما تطورت في ذهن صاحبها وتقدمت بين يديها ونهاية التفكير فيها : وكل موضوع من موضوعات الكتاب عن الدين أو عن المجد أو عن العلم أو عن المال أو عن السياسة فهو مبحث مفروق منه بين جوانب المناقشة وخواطر الفطن والامتداد وأدلة التشكيك والفنيد : مما يتم على بحث طويل في ذلك الموضوع لم يف حده صرائحه الأولى من الفطن العاجل والرأى النطير .

فن اليسر - من أجل هذا - أن نسمي دعوة الكواكبي فلسفة اجتماعية أو نسميها مذهباً فلسفياً ينظم بين مذاهب الحكماء المصلحين ، لأنها استلزمت من تفكير صاحبها كل ما يسلمه مذهب الفيلسوف من التحقيق والرؤية والمراجعة والتوفيق بين التقاليد ووجوه الاختلاف .

ولكننا لم نشأ أن نسميها فلسفة ولا مذهباً فلسفياً كمائر المذاهب التي عرفت بأسماء أصحابها أو بعنوانين موضوعاتها ، لأن الدعوة لها عمل يزيد عن التفكير ، ولا ينتهي عند مجرد التفكير .

فالادعوة التي تسمى « فلسفة » تدور على البحث والنظر ثم تترك العمل على قواعدها لمن يضمن بها ويقدر على تطبيقها ، وقد يكون البحث فيها مطلقاً غير محدود ومن من الأزمنة أو بلد من البلدان ، ولكنه يرسل

على إطلاقه كما ترسل القوانين الرياضية لمن يتحرق لها أدواتها ويوفق بينها وبين مطلبها ، فهي فكرة معلنة من زمن مجهول رجال غير محدود .

ولا نحسب أننا نسمي دعوة الكواكبي باسمه الصحيح إذ أسميناه « مذهباً فلسفياً » لنقول إنها هي « مذهب الكواكبي » في الإصلاح . فإن المؤلف عن المذاهب أنها طريق يقابل طريقاً آخر أو طريقاً متعدد للتوضيح رأى أو تنفيذ عمل ، ودعوة الكواكبي قد بلغت إلى مرحلة وراء المذهب وراء الاختلاف عليه وجاوزت المذهب إلى التوار الذي يوضع موضع انتقده ولا يعوقه عنه إلا أن يتولاه العاملون .

فصاحب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » لا يعرض لنا فكرة معتقة عن مجال مجهول : ولا يعرض لنا مذهباً تقابله بمذهب بعض غيره ، ولكنه يعرض لنا « برنامجاً » يتبعه عمل ، وقراراً تنتهي إليه مذاهب الاختلاف .

...

إن ذكك المنهج « العمل » غير أجلد المناهج أن ينتظر من عقل كعقل الكواكبي فيها ورثته من استعداد القطرة وفيها تعود بهربيته وعمله . فإنه نشأ في بيئة لم يزل من قديم الزمن ملتقى لحركات النشاط والدأب من أنحاء العلم ، وترقى في أسرة تعرف نصناعة كما تعرف تكاليف الرئاسة المدنية والديوية ، وتولى أعمال الإدارة والتنظيم في كثير من الوظائف التي ينادي بها تنفيذ الخطط وإعداد المشروعات للتنفيذ ، وكاد أن يكون كل تقرير كعبه برنامجاً لعمل يؤديه أو مشروعاً « لبرنامج » يقترح تنفيذه على غيره .

ونكاد نخزم بأدنى في حب قلب هجرته الأجيال منها لأنه لم يكن قد مرغ من التفكير ولم تتفرق في ذهنه فكرة صالحة للإنجاز أو ملاحظة لإقناع غيره بالإنجازها . فلما تفجرت في ذهنه هذه الفكرة وحصل في يديه برنامج العمل لم يكن في طاقته أن يبق بعد ذلك ولو نسيات له في يده أسباب البقاء . لأن بناء المصلح العامل ولديه خطة محضرة للعمل

خلق أن يقلقه أشد من قلق الخوف والخطر ، وحسن لقواه الجياشة بالحركة أشد من حسن القيد والاعتقال ، وقد يكون غريباً من رجل غير الكواكبي أن يحكم في بلده ويؤلف الكتب التي تهدده في مآلته ، بل تهدده في حياته ، ولا يحظر له أن يعتقد العزم على الهجرة إلى بلد آخر يسطر فيه ما يسر في خاطره وهو من على نفسه وعلى تراث تفكيره .

ذلك غريب من رجل غير الكواكبي قد يقنع بالتفكير ويحسب أنه لباب دعوته التي يتم بها رسالة حياته ، فإذا خطر له أن ينجو بتلك الرسالة من الخطر أو انصافه نجا بها وهي خاطره في خضمه قبل أن يجرى بها القلم فكرة مسجلة على ورق مقروء .

أما الرجل العامل بفطرته فالتفكير عنده تمهيد لرسالته ينتهي فينتهي معه الفرار وتجسد الحركة : وإنه ليفكر ويراجع فكره ويستطيع القرار على التفكير والمراجعة إلى أن ينحول الفكر إلى برنامج مفصل وخطة محددة ، ويؤمّن لا قرار ولا انتظار .

فأما عقد النية على الهجرة خرج من بلده وفي جعبته ذلك البرنامج الخيط بكل جزء من أجزاء الدعوة وكل مقصد من مقاصد الإصلاح .

خرج من بلده وفي جعبته الرسالة التي يحشى عليها ، وغاية ما انخرط من الحيلة أنه لم يعلن اسمه مع إعلان تلك الرسالة ، ولعله آثر الكتمان لأنه آمن له على الحركة والتنقل بين الأقطار : وأمر له ولأن يتخرجون من لقائه إذا انكشف مقاصده وتبين العاجل والأجل من نيته ومسابجه ، ولا بد من مثل هذه الحيلة في دور الاستطلاع وحسن التنبؤ ووزن الخطى بين العجلة والأناة .

...

وأيما كان الصبر الذي انتهت إليه عبارة المؤلف في كتيبه الباقيين لقد كانت أعماله للإصلاح كما ينبغي أن يتولاهم العاملون مني صحت عزيمتهم عليها ماثلة أمام بصيرته جليلة العالم في خنده ، بعضها مشروح

سبب في إيجاز ومهونة ، وبعضها مذكور كما تذكر رؤوس مسائل للعودة إليها والإضافة فيها ، ولكنها تكن بتفصيله وإجمالها تنسيق برنامج العمل والإحاطة بأصوله وفروعه فيها يشمل الإصلاح من شؤون الدين والدنيا .

وما من شيء يعوز البرنامج الذي يحيط بمطالب الإصلاح في مسائل الدين والدولة ومسائل السياسة والأخلاق ومسائل الثقافة والثروة الاقتصادية والبرية لاجتماعية ، وهذه هي المسائل التي احتراها الكتيبي على تفصيل أو إجمال ، وعلى جلاء وثقة فيها فصل وفيها أجمل . ومن هذين الكتابين نستخلص ذلك البرنامج الخاف بعير كنهه ولا منقعه . ونؤثر أحياناً أن نعتمد على عبارة المؤلف محافظة على منهجه وإنياباً : يتخلل السطور من مقاصده ونياته .

وسنرى بعد الإحاطة بآرائه ومقترحاته أن دعوة هذا المصلح العامل تنتظم في عداد « الفلسفات » التي اشتهر بها حكماء الإصلاح والنظر . ويصح أن نسمي بالفلسفة الكواكبية في سياق المناهج والآراء التي تنسب إلى أصحابها من الحكماء ، وإنما يختار لها اسم « البرنامج » لأن فيها مزية ليست في مناهج الفلسفة : إذ هي فلسفة محضرة للعمل ، بليغة في باب الأعمال ، لأنها توافق مقتضى الحال .

حتى طريقة الصحابة كافة واتباع عامة والأئمة المحمدين والفقهاء الأولين
من أهل لقرون الأربعة أجمعين !

والله أن يختار بين أقوال المحمدين ولا حرج عليه ، فإن البعض
وصفوا المقلد لأحد المناصب إذ أخذ في بعض الأحكام بذهب آخر
مختلفاً ، واستعملوا لفظة التلقيح في مقام التلاعب بالدين أو التزييع
القيح . والحال ليس ما صوره يتلقين إلا عين التقليد من كل الوجوه .
ولا بد لكل من أجاز التقليد أن يجزئه . لأنه إذ تأمل في القضية يجد
القياس أنه هكذا يجب على كل مسلم عاجز عن الاستدعاء في مسألة دينية
بنفسه ويسأل عنها أهل الذكر وعلى هذا الاعتبار ما المانع لم
المقلد أن يتعلم كل مسألة من الضاربة والغسل والوضوء والصلاة من مجتهد
أو فقيه أو مجتهد ؟ ولا يحل أن يكلف هذا المقلد بأخذ دينه كله
من عالم واحد . لأن الصحابة رضوا الله عنهم مع اجتهدهم وتحالفهم في
الأحكام كان يصل بعضهم خلف بعض مع حكم المؤتم منهم حسب اجتهد
بعدم صحابة إمامه " .

...

ويرى الكواكبي بحق : أن الجمود والخرافة لا محل لها بين أتباع
دين قائم بالوساطة والجلاء يأخذ نواصبهم وعاصمهم ماعذ مفهوم والبيئة
عن حسب عقولهم وبصالحهم . فإن التدين على هذا العرف بمثابة بيئة
متجددة تتقاهما المسلمون أئداً وكأتم هم المسلمون الأولون جللا عند
جبل .

ولم يغفل الكواكبي عن خطئه العملية لتحقيق الإصلاح في هذا
الباب . لأنه يذكر في سنة العالم تلى يؤمله علمه للاجتهد بأمرى والإقناع
بالدليل ، وبذكر موضوعات لكتب ودرجات هذه الموضوعات التي

(١) لم اقرأ .

الدين

يتلخص الإصلاح الديني عند الكواكبي في تحرير الإسلام من
الجمود والخرافة .

وأخطر آفات الجمود عنده أنه جعل المسلمين صورة مقلدة ونسخة
مستارة ، فهم مملون لئمة أملائهم وليسوا بالمسلمين لئمة أنفسهم ،
وهم مسلمون بالتبعية وليسوا مسلمين بالأصالة ، يدينون بالإسلام انقياداً
منهم لمن تقدمهم ولا يحسبون أنهم أهل للخطاب على خلتهم ، وقد صدق
فيهم ما جاء الكتاب المبين على الناس : وإن وجدنا آباءنا على أمة وإنا
على آثارهم مقتنون .

وعلاج هذه الآفة أن يعاد بالدين إلى بساطته الأولى التي يصرت
فهمه لمن قبلوا دعوته في صدر الإسلام ولا تروا تيسره لمن يدعون إليه
من بساطته وصهولته بين أبناء الشعوب القطرية .

ومن واجب المسلمين في كل زمن أن يفهموا دينهم وأن يعرفوا حكمة
فرائضهم وحقائدهم ، وليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من
سف وأن يقاد الحلف كنه لغز ما عرف ، ولا يتكلم إيمان المسلم بغير
الفهم والاجتهاد في كل موطن من العالم وفي كل سنة من الزمن .
فإن تعلم اجتهد المسلمين جميعاً فقيام العلماء بأمانة الاجتهاد مرض
كفاية لا يسقط عن جبل من أجيالهم ولا صلاة لمن يسقطونه عن أنفسهم .

ولا ينبغي المقلد من الفهم الذي هو قدر عليه . فإن العامة يلبسهم
العلماء مع بيان الدليل بقصد الإمتاع . فالعلماء لا يجسرون على أن يفتنوا
في مسألة مطلقاً لم يذكرها دليلها من الكتاب أو السنة أو الإجماع ،
حتى لو كان المستفتى أعجباً أمياً لا يفهم ما الدليل ، وطريقتهم هذه .

ولكن هؤلاء
والأمرار ويتوارى
بالدليل والسند الم
الكهان وأدعياء العلم
أو لخدمة الحاكمين
التضليل وقيادة الرء

قال الأستاذ
بأيديهم بسبب الخ
انقلب الوضع ، أ
ورئيس عادل يختم

واستغلال أيا
المشعوذين والدجا
مع الغفلة والرهبة
للسوء وأدعياء الله
أنفسهم بأهل الباطن
وبما أمروا عليه في

قال من نص
المسلمين من أمثال : ...
وانتصار مثل فيليب الثاني الأسباني وهنري الثامن الإنجليزي ... والحاكم
الفاطمي والسلاطين الأعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية والباين التكايا لم
يكن ذلك كله إلا مقصد الاستعانة بالمدِين أو بأهل الدين على ظم
المساكين ، ،

ويرى الكواكبي أن المتشددين من رجال الدين مسئولون عن الحكم
المستبدلين عن شيوخ التصوف لفساد بين العامة وأشبه العمة من
المسلمين المتقدمين والمتأخرين ، لأنهم جعلوا الدين حرجاً ثقيلاً على

لوا الطريق لمن يبيحون المخطورات باسم العلم ، الباطن ،
لغة التي ترفع التكليف عن لواصلين إلى الهداية من غير
بعة الظهرة ولولا لعنت امرئ من أولئك المتشددين ،
ق التصوف المكثوب ... قال بلسان الشيخ السندي : « فبما
ضيق صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالاتجاه إلى صوفية
يجهلون عليه الدين كل التوبين ، وهم القائلون إن الغم
وبلحة تمنع الصلحة ، وبظرة من المرشد الكامل يصير
، وبشفقة في وجه المريد ، أو تفتة في فمه : تطيحه الأسمى

قد سألني لدعت صاحب الغار عليه الرضوان ، وتدخل تحت
في الولاية لا ينافيا وتكاتب الكبار
ن الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب
والفجار أولى من الأمر بالمعروف
الأقوال المهوكة للدين والأعمال التي
رس الجاهلين .

الصوفية الحقيقين . وأين هم ؟
ن عند هؤلاء إلا التوسل بالكسباب
راض إفراطاً في الشهوات وتصفية
لدينا وحمل الطوائف بوسائل التمهيد

والقرين :
للراحة ثقة
الآخرة .
التهذيبية ؟

على :
التي تغلب
إلى الإصلاح

وعلى أن الناس لو وجدوا
فرارهم من الأعداء . إذ لم
- فة لتظهر انفسهم من
شأن الله في حب

كما تقع عليه المشاهدة وبحصره الحس والاكتفاء به عما وراءه من طوابع النفس وكوامن الضمير .

فلم يكن الكواكبي مصلحاً دينياً على هذا النحو الضيق المحدود : بل كانت عنايته بالشعائر والظواهر المصونة ميلاً إلى تصحيح جوهر الدين في أصوله التي انضوت عليها الطوائع الإنسانية ، وكان إيمان الضمير عنده هو قوام الدين كله ، وفضيلة الإسلام في اعتقده أنه دين الإيمان على خلاف أديان المراسم والتقاليد التي أنسدتها الوثنية وبقياءها فأرشدت أن تصبح كلها أشكالاً وصوراً مجردة من روح العقيدة وهداية الإيمان .

فلما انقسمت المذاهب إلى ديانات إيمان وديانات مراسم وتقاليد فالإسلام في طليعة المذاهب التي يطلب فيها الإيمان على المراسم الشكلية والتقاليد الثقيلة وتفتح الباب على مصراعيه لوساطة الكهان وسطان الهياكل والحاربي .

وفي غير موضع من مساجلاته يذكر هذا الإيمان الأصيل في البدية الإنسانية فهو تارة أناموس شريف واحد مودع في فطرة الإنسان ، وهو إدعائه الفطري للقرعة الغالبة ، أي معرفته الله بالإمام الفطري الذي هو إلههم النفس وشده وإغاثها فجورها وتقواها . ولا ريب أن هذه القرعة الدينية في الإنسان علاقة عطشى بشرب حياته لأنها أقوى وأفضل وائزع يعدل سائر نواحيه المضرة ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن آدم .

ويعود بعد قليل فيقول : إن النوع الإنساني مفلور على الشمر بوجود قوة غالبة شائلة لا تكيف تتصرف في الكائنات على نواحي مستظمة ... وإن هذا الشعور يختلف قوة وضعفاً حسب ضعف النفس وقوتها ويختلف للناس في تصور ماهية هذه القوة حسب مراتب الإدراك فيهم أو حسبها يصادفهم من التلقين عن غيرهم .. وذلك هو الضلال

وهذه هداية . على أن الضلال غالب لأن موازين اعتقالات البشرية مهما كانت وسعة قوة لا تسع ولا تتحمل وزن جبال الأولية والأبدية .

ثم يقول بعد استطراد : « إن أصل الإيمان بوجوده أصح أمر فطري من البشر كما تقدم ، فلا يحتاجون فيه إلى الرسل وإنما حاجتهم إليهم في لاهتئاد إلى كيفية الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتنزيه .

وقد ثبت عنده كما قال : « ما يقرره المخلوقات من أنه لا يصح وصف صف من الناس بلا دين لم مطلقاً . بل كل إنسان يدين بين أصل صحيح أو فاسد من أصل صحيح ، وإما باطل أو فاسد من أصل ... »

ومن ثم يتلخص كل إصلاح ديني نهض به الكواكبي في تصحيح الإيمان واختيار الشعائر والفرائض آية على صحة الإيمان ، تدل على سلامته يستلزم صلاحها من تشبهات لوثنية وسوارض لشرك والزيغ عن لوحدة ، ولا بقاء لمظلم والفساد مع هذا الإيمان ، ولكننا قد بينا أن يطول بتدوينا مع قيام الشعائر التي غارت روح الدين ولم يتخلف منها غير رسوم كشمكال .

قال في كلامه عن الاستبداد والفرق في طوائع الاستبداد : « ولا يجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والحج وأركانها كلها لا تنفي شيئاً مع فقد الإيمان : إنما يكون إتيانها حينئذ بمثابة شعائر قيام بإحسان وتقديرات وهوسات ، تضعيها الأموال والأوقات . »

...

هذا الإيمان هو قوة الإسلام ، وهو باعث الغيرة التي تثير المؤمن على البغي والنقم لأنها استبعاد يأنف منه من يرفض الميادة لغير الحق .

ولما يغيب الكواكبي بعد تلك العبارة قائلاً : « إن الدين يكلفكم إن كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ، أن تأمروا بالعرف (الكواكبي)

[illegible][illegible][illegible]

(۱) ... (۲) ... (۳) ...
 (۴) ... (۵) ... (۶) ...
 (۷) ... (۸) ... (۹) ...
 (۱۰) ... (۱۱) ... (۱۲) ...
 (۱۳) ... (۱۴) ... (۱۵) ...
 (۱۶) ... (۱۷) ... (۱۸) ...
 (۱۹) ... (۲۰) ... (۲۱) ...
 (۲۲) ... (۲۳) ... (۲۴) ...
 (۲۵) ... (۲۶) ... (۲۷) ...
 (۲۸) ... (۲۹) ... (۳۰) ...
 (۳۱) ... (۳۲) ... (۳۳) ...
 (۳۴) ... (۳۵) ... (۳۶) ...
 (۳۷) ... (۳۸) ... (۳۹) ...
 (۴۰) ... (۴۱) ... (۴۲) ...
 (۴۳) ... (۴۴) ... (۴۵) ...
 (۴۶) ... (۴۷) ... (۴۸) ...
 (۴۹) ... (۵۰) ... (۵۱) ...
 (۵۲) ... (۵۳) ... (۵۴) ...
 (۵۵) ... (۵۶) ... (۵۷) ...
 (۵۸) ... (۵۹) ... (۶۰) ...
 (۶۱) ... (۶۲) ... (۶۳) ...
 (۶۴) ... (۶۵) ... (۶۶) ...
 (۶۷) ... (۶۸) ... (۶۹) ...
 (۷۰) ... (۷۱) ... (۷۲) ...
 (۷۳) ... (۷۴) ... (۷۵) ...
 (۷۶) ... (۷۷) ... (۷۸) ...
 (۷۹) ... (۸۰) ... (۸۱) ...
 (۸۲) ... (۸۳) ... (۸۴) ...
 (۸۵) ... (۸۶) ... (۸۷) ...
 (۸۸) ... (۸۹) ... (۹۰) ...
 (۹۱) ... (۹۲) ... (۹۳) ...
 (۹۴) ... (۹۵) ... (۹۶) ...
 (۹۷) ... (۹۸) ... (۹۹) ...
 (۱۰۰) ... (۱۰۱) ... (۱۰۲) ...

(۱) ... (۲) ... (۳) ...
 (۴) ... (۵) ... (۶) ...
 (۷) ... (۸) ... (۹) ...
 (۱۰) ... (۱۱) ... (۱۲) ...
 (۱۳) ... (۱۴) ... (۱۵) ...
 (۱۶) ... (۱۷) ... (۱۸) ...
 (۱۹) ... (۲۰) ... (۲۱) ...
 (۲۲) ... (۲۳) ... (۲۴) ...
 (۲۵) ... (۲۶) ... (۲۷) ...
 (۲۸) ... (۲۹) ... (۳۰) ...
 (۳۱) ... (۳۲) ... (۳۳) ...
 (۳۴) ... (۳۵) ... (۳۶) ...
 (۳۷) ... (۳۸) ... (۳۹) ...
 (۴۰) ... (۴۱) ... (۴۲) ...
 (۴۳) ... (۴۴) ... (۴۵) ...
 (۴۶) ... (۴۷) ... (۴۸) ...
 (۴۹) ... (۵۰) ... (۵۱) ...
 (۵۲) ... (۵۳) ... (۵۴) ...
 (۵۵) ... (۵۶) ... (۵۷) ...
 (۵۸) ... (۵۹) ... (۶۰) ...
 (۶۱) ... (۶۲) ... (۶۳) ...
 (۶۴) ... (۶۵) ... (۶۶) ...
 (۶۷) ... (۶۸) ... (۶۹) ...
 (۷۰) ... (۷۱) ... (۷۲) ...
 (۷۳) ... (۷۴) ... (۷۵) ...
 (۷۶) ... (۷۷) ... (۷۸) ...
 (۷۹) ... (۸۰) ... (۸۱) ...
 (۸۲) ... (۸۳) ... (۸۴) ...
 (۸۵) ... (۸۶) ... (۸۷) ...
 (۸۸) ... (۸۹) ... (۹۰) ...
 (۹۱) ... (۹۲) ... (۹۳) ...
 (۹۴) ... (۹۵) ... (۹۶) ...
 (۹۷) ... (۹۸) ... (۹۹) ...
 (۱۰۰) ... (۱۰۱) ... (۱۰۲) ...

يقول بعد ذكره الدواب والجواري بالريح : (وخلق لهم من مثله ما يركبون) .

« وكشفوا سرود الميكروب وتأثيره في الجدارى وغيره من نريض ، وانقرآن يقول : (وأرسلنا سليمان نبياً نبأيل ، فريمهم بجارية من سجيل) . . . أى من طين المستنعات البابس .

« إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية ، وبالتقياس إلى ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها الموهون . . .

• • •

هذه الفكرة الضافية عن التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث هي إحدى الأفكار الأساسية في دعوة الكواكبي إلى الإصلاح في جميع نواحيه ، إذ كان الإصلاح الدينى عنه غير منفصل عن إصلاح المجتمع كله في شئونه الدينية ، وكانت فكرة ملازمة له منذ أخذ في لاطلاع على مزاجع العلوم المصرية ، فلما اطلع على تلك الكشوف التي أحصاها جميعاً لا يتم في وقت واحد ولا بد له من أوقات متتابعة يتخللها النظر والنأمل ويعود إليها بالمراجعة والتقارنة . إذ كان لم تكن فكرته هذه مما استراحه في مطالعته الطويلة فحلله قد استوحاها من دعاة التوفيق بين الدين والعلم الذين سبقوه إلى النظر في مشكلات العقيدة والفكر منذ دعت الحاجة إلى وحدة التشريع . كما حدث في الدولة العثمانية للتوفيق بين الأنظمة المختلفة التي تضيق على رعاياها حسب اختلافهم في الجنس والملة ، وصراع خطرت له فكرة الوفاق بين الإسلام والعلم الحديث إهداء من أثر معاناته الحادة أو كانت إحدى خواطر العصر الشاعرة على ألسنة المستنيرين لقد تطورت في ذهنه وعاود النظر فيها حيناً بعد سنوات غير قليلة ، فقد كانت في ذهنه قبل أن يكتب « أم القرى » وكانت في ذهنه إلى أن أودعها مقالاته عن طابع الاستبداد وزاد عليها ما استفاده من مطالعته في هذه الأثناء .

ومما يلاحظ أن هذه الكشوف العلمية التي أوجز الإشارة إليها يوشك أن تحيط بأحصاء كشوف العلم الحديث في المسائل الكونية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كأنه ينقلها من سجل محفوظ ، وهي ملاحظة ينبغي أن نشه إليها . لعلم منها قررة اندفاع الإنكار الحديثة إلى البلاد الشرقية ومبلغ سريانها بين من يعرفون اللغات الأوروبية ومن يجهرتها . فإن الكواكبي لم يكن على علم بلغة من اللغات الأوروبية وساعده على المظلة فيها ، ولكنه قرأ أخبار الكشوف الحديثة واستقصاها كما يستقصيها غير المختصين بها من الأوروبيين أنفسهم في بلادهم ، وتمت علامة قوية من علامات الصدقة التي أحسها الشرق بعد هزيمته أمام العرب في غارات الاستعمار ، ولنا أن نقول إنها كذلك علامة على اليقظة السريعة بعد تلك الصدمة الرجعية ، لأن سريان الفتوح العلمية مع الفتوح السياسية تشهد للشرق شهادة حسنة بالتقياس إلى زمانها ، وأقل ما في هذه الشهادة أنه تلقى الصدمة مفتوح العينين ليرى - وهو منزه من غفوته - جهده ما يندر أن يراه .

وكان رد الفعل سريعاً كما تبين الآن من موقف الكواكبي وإخوته رواد الدعوة إلى الإصلاح . كان رد الفعل بين مصلحي الإسلام أسلم وأقوم وأدعى إلى الثقة والرجاء من رده العنيف بين الأوروبيين : هناك كانت أزمة الدين عند كثير من اليائسين ، وهنا لم تكن للدين أزمة عد عاربه ، ولكنها أزمة الجهلاء به وبالعالم الحديث بين أهله . أو كانت أزمة الإقناع والاستهزاء بخبرة الجاهل بالدين الخالد والعلم الحديث على السواء .

ويقتضينا تقدير الكواكبي في هذا المقام أن تذكر القارئ بين نظريته إلى العلوم الدخيلة التي طرأت على الفكر الإسلامي حوالى القرن الثالث للهجرة ، وبين نظريته إلى العلوم الدخيلة التي تلقاها المسلمون واشترقوا بعد ذلك بعشرة قرون ، وهي من علوم النهضة الأوروبية الحديثة .

إن هذا الفرق بين نظرة الكراكبي إلى أثر الفلسفة اليونانية وأثر العلم المعصرى لمولدة من الآيات لمسببة على استقامة النظرة العملية في تفكير هذا المصلح الحكيم ، لأنه يتجه إلى الهدى لمقصود بعد تثبيت وإيقان منه ، ولا يبدد فكره وعزمه فيما ينشعب حوله من مطارح الفنون وأباطيل الأوهام إلى غير طائفة ، وهداه هنا هو الإصلاح الديني في تجربته العملية ، وخلاصة هذا الإصلاح الديني أنه هو اعودة بالإسلام إلى بساطته الأولى ، وقوامها الاكون إيمان القمير .

فالكواكبي لا يحفل - أدم هذا الهدف - بفلسفة اليونان من الوجهة النظرية ، ولا يقرمها في ميزان دعوته بقيمتها في الورق أو قيمتها في رؤوس طلابها المنشغلين ، وإنما يتحكم على أثرها في التفكير الإسلامي حين يحكم على مذاهب ثنائها من المسلمين ، وعن أخلاط الوثنية التي اصطبغت بصفتها واتخذت لها ألواناً من انصوف الكاذب ، ومن التعمق الأجوف التي تأباه بساطة الإسلام .

فالفلسفة اليونانية في ميزانه هي تلك الأخلاط العنيفة التي قال عنها بلسان المحدث ابن تيمية وهو يصف العالم المهتد ويشترط فيه : « أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهبه بالمنطق والجدل التعليميين ، والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيدغورية ، وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة وإعرايات بصوفية ومتبذبات انحرارج وبحريجات الفقهاء المتأخرين ومشويات الموسومين .. » .

وهي التي عنما حين قال بلسان البليغ القدسي عن الإدخلاء : « إنهم رجسوا الأخذ بما يلزم بقايا نزعاتهم الوثنية فأتخذ أعمال السياسيون - ولا سيما المتطرفون منهم - هذه التخالف في الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال السياسي قنناً عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذنباً ، متضادية سياسة ، متكففة على الدوام . وهكذا خرج الدين من حضنة أهله وتفرقت كلمة الأمة لطمع بها أعداؤها .. » .

وتلك الفلسفة التي جعل صلاح المسلمين مرهوناً بتطهير عقيدة الإسلامية من بقاياها ، هي منطق الجدل الذي قال إن الغريبيين هم ملوكه وحقوقاؤه لا همرة له ومع أنهم يعنون بالبحث عن وسائل نظام العجوات .

ونحسب أن حسنات المنطق وفلسفته التي تنشعب منه أخرى أن تنجح في عين أنصاره وعشاقه إذ وازنوا بين فوائده ومضاره كما أنها الكواكبي في عصره وفيما تقدمه من عصور الثقافة الإسلامية .. فإن حسن في المنطق وفلسفاته الجدلية لا يعدو أن يكون تمرينات عقلية يشرب بها الذهن على فتح أبواب البحث في المسائل النظرية ومسائل الغيب أو ما وراء الطبيعة - التي قلما تسفر عن نتيجة قاطعة في موضوع من موضوعاتها ، ومن خصائص هذه الموضوعات أنها ثقافة فردية يدبرها تفكر في تأملاته بين وبين نفسه ولا تتألف منها دراسة عامة تتداولها الجماعات وتنفع بها في مرافقتها ومطالب تفكيرها : وقد ثبت هذه الفلسفات الجدلية عن ميادين الثقافة الأوربية قبل نهضة العملية فلم يكن غريباً ليعوق ظهور العلوم التجريبية ولا ليعوق ظهور تصدعت والمختبرات التي تنتجت عنها تلك العلوم ، بل يجوز أن يقال إن تلك العلوم - ظهرت على الرغم من اعتراض الساطقة والمفلسفين سليم وإنكارهم لوسائلها وأساليبها . إذ كان المناطقة المتفلسفون يصرون على أنهم حتى تقوم على براهين الجدل والمناظرة . ويرفضون ما عدا تلك الآراء من قواعد البحث والتجربة . فغياب الفلسفات الجدلية لم يعطل في الغرب نهضة العلوم والصناعات ، بل قلبها الذي بقي بين أنصاره وعشاقه هو الذي عطشها وأوشك أن يخلق عليها مذابحها .

وهذه هي الفلسفات المطلقة على أحسنها في أضيق حدودها فلا جرم تدوى عن أعين أنصارها وعشاقها - فضلاً عن منكرها إذا حكروا عليها بأسرارها ونظروا إلى جرائرها التي تخفت عنها كلما وصلت إلى عقول الجماعات وتلبست بالمذاهب والمعتقدات وانتشرت على الصورة التي تنشر بها الأفكار بين العامة وأشباه العامة ، وتنتقل بها من لغة

الز
وال
سو

إليه
الم
لا

الفر
عن
آثار
ولا

وفد
من
ونية

جدد
وحد
والد

إليه
أعظم
بعد

بالأد
العلو

الرموز الخيالية والفروض المحتملة إلى لغة الواقع المحسوس والشعائر المحسوسة والأشباح الظاهرة التي تعقلها الجماعات ولا تعقل فيها بينها فكرة مشتركة صوابها .

إن أضرار الفلسفات الجدلية كانت حقيقة واقعة في كل أمة تسربت إليها ، وكان أثرها في الأمة الإسلامية شديداً بأثرها بين اليهود وبين المسيحيين وبين أتباع « زرادشت » من المتقدمين والمتأخرين ، الحاجة لا تنتهي وخصومات لا تنحسم ومباحكات على الصغار والفسافات من القول لا طائل تحتها على حالي الثبوت أو البطلان ، وجملة ما يقال عن أفكارها في عالم العقيدة أنها تنسد بساطتها وتشوب صفاتها . ومن آثارها في عالم الثقافة أنها تثير المشكلات ولا تحلها وتشغل مكان العلم ولا تتول به إلى عمل مفيد .

والنظرة العملية في طبيعة انكواكي هي التي زعمته في ذلك المنطق وفلسفته وأوحى إليه أن البحث في لغة الحيوان الأعجم أولى وأصلح من البحث فيها ، وقد تأصل في روعه هذا الرأي الثابت نتيجة لمطالعاته ونتيجة لمشاهداته الملموسة في ولت واحد .

فن مطالعاته عرف غوائل الفتن التي أشاعها في العالم الإسلامي جعل المتفلسفين حول مسألة القدر ومسألة الصفات ومسألة القرآن وخلقه ومسألة الآيات وتوحيدها وأشياء ذلالت في « على الإلهية الصريحة والمستورة أو الشريعة الظاهرة والعاطفة أو القياس والتقليد وما انتهت إليه هذه المسألة خاصة من اجترار المقلدين على رأى لم يجزى عليه أعظم المجتهدين ، وهو الرأى القائل بتحريم الاجتهاد على المسلمين جميعاً بعد عصر التابعين ، أو على الأكثر بعد دهرى التابعين .

ومن مشاهداته الملموسة عرف وبال التصرف الكاذب والفلسفة الناقصة على ألوف من معاصريه الذين تلقفوا البدع وتوارثوها من دعاة العلوم النخبية بين وثنية وبونانية . فقد كان من وبال التصرف الكاذب

والفلسفة الناقصة أنه هدم العلم والعمل ، وأفسد الدين والخلق ، وشجع البطالة والإباحة بين من يسمون أباطنة « انكالا على الله » ويسمون الإباحة وصولاً يستط الحلود ويسمح بالترخصة في المحرمات

رأى لكواكي أثر العلوم الدخيلة في لتربتين الأولى والثانية فاحتكم إلى الواقع وإلى النتيجة العملية في موقفه الحاسم بينهما - وفي العالم الدخيلة فيما مضى فقد كان أثرها مفسدة لعقيدة في بساطتها ومرجعة إلى العجز . لتفتت في الحياة العامة ، وأمد العيون الدخيلة في عصره فقد كان أثره الواضح قوة لأصحاب وغلبة لهم على الجاهلين بها ، وهبة إلى المصلح والعمل والمعرفة بأسباب الحياة الواقعة ، ولم تكن هذه المعرفة عند الحاجة إلى برهان يؤيدها غير تنهيجها المائلة في سياسة الحكم وصناعتها وأحوال نجاحها واقتدارها .

نلبست مهمة المصلح الحكيم أن يحارب هذه العلوم الدخيلة كما حارب أخوات لها من قبل . ولكن مهمته على نقبض ذلك أن يحرب بها ويجهل في نفسه وفنفسه ويتحداها سيئاً من سبل الإصلاح ويذكر كيف يتبع باسم الدين من يدرسون الإصلاح باسم الدين ، لأنه جليل ولا محل لجديد عند الجامدين عن القديم .

وقد كان موقفه حيال العلوم الحديثة أصح وأصدق من المعارضين علماء العالم من رجال الدين جامدين في أمه العصر الحديث ، ولا سيما الأمة الإسلامية : هم ينولون عن كل جديد به باطل وإنه يناقض الكتب المقدسة والوصايا المأثورة ، وهو من وقف كمولفه يرد التهمة على أصحابها وينسب منهم أنهم يعارضون العلم والقرآن معاً ، إلا أن العلم والكتب يتفنان ، وما كشفه العلم حديثاً يجد ما سبق به للكتاب ، أو أشار إليه .

وكان لكواكي مؤلفاً في توفيقاته : حسن فهمه كتاب دينه ، وحسن اطلاعه على كشوف العلم الحديث في عصره ، ولم يحدث بعد عصره ما يدعو إلى شيء من الاستدراك على موقفه إلا لفترة في عصرنا

هذا بين النظريات العلمية ومقررات العلم التي بلغت من الثبوت أن
نحسب من القوانين العلمية أو تواميس الوجود المخلق عليها ، فلماذا جاز
أن نوفق بين حقائق الكتب وحقائق العلم المقررة من الحسن أن نستطيع
الإنابة قبل التوفيق بين الكتاب وبين النظريات التي يتناولها البحث
ويتطرق إليها الخلاف بين وجهات النظر ومعارض الآراء ، ونذكر
على سبيل المثال تفسير السموات سبع بالسيارات السبع أو تفسير طبقات
الأرض في علم « الجيولوجية » بالسبع الطباق ، فإن الكشوف الفلكية
قد زادت عند السيارات ولا أثر - تزيد مع إحكام الرصد وتعميم النظر
إلى طوارق المنظومة الشمسية من المذنبات والنبيات ، وهم يحسبون ليوم
سيارات المنظومة الشمسية ثمانيا . عدا الكرة الأرضية والنبيات ، ويحدث
مثل ذلك في حساب طبقات الأرض على حسب تعريف الطبقة ومكانها من
« دار الكرة الأرضية » فإذا كان من الثابت أن القرآن الكريم لم يشتمل على
آية تمننا أن تقبل حقائق العلم فقد يقع الخلاف فيها بحسب من الحقائق العلمية
وما بحسب من نظريات البحث وتحريه ، وقد يدعو الأمر حتما إلى التفرقة
الدائمة بين الحقائق والنظريات . وحسنا من كتابنا الجليل أنه يأمرنا بالبحث
في العلم ولا بصندا عن حقائقه ولا نظرياته ولا عن التوصل بمحاولة من
المحاولات لتحصيل تلك الحقائق في النظريات .

وبعد نيف وخمسين سنة من قيام الدعوة الكواكبية لا يزال أمامه
القرصم الذي اختاره لإصلاح ديني حاشا للبناء عليه . حريدة حالته
من ضوايب الجهل والفسطة ، تؤمن بدينها ودينها على بصيرة .

• • •

الدولة

الكلام على الدولة وعلى نظام الحكم شيء واحد في مصطلحات
السياسة على إجمالها ، ولكنه لم يكن شيئا واحدا في كلام الكواكبي
ومعاصريه . لأن كلمة الدولة كانت تعني عندهم « الدولة العثمانية » إن
أرسلت على إطلاقها وكانت لها مسألة خاصة مستقلة بثبوتها عن شئون
النظم الحكومية ، يحددها مركز الدولة العثمانية الذي كان في أخبار
أيامها على الخصوص نمطا عجيبا بين الأنماط الدولية يتدر نظيره بين
دول الشرق والغرب بما لها من تكوين فريد في دولة الدولة وأجناس
الرعاء وقيام السلطة ومواقع البلاد بين القارات الثلاث : أوربة وآسيا
وأفريقية .

كانت الدولة العثمانية مملكة أو « امبراطورية » متشعبة تجمع
أنفاسا من الأمم التي تختلف بأجناسها وأديانها ولغاتها ومصالحها ، ويدل
على مبلغ شعبها وانقسامها أن الأمم التي خرجت منها واستقلت عن سيادتها
بعد نورات الاستقلال وتقرير المصير زادت على عشر أم ذات عشر
ستغومات .

وكذا اسم الدولة العثمانية يطلق عليها لأن حكمها من بني عثمان
قبيلة تركية تنمقد ولاية الأمر فيها لسلطانها وقائد جيشها من أبناء قومها ،
إذ كان الرعايا الآخرون يعزل عن جيش الدولة لا يشتركوا في هيئة
عسكرية - غير الكتاب المحلية - إلا جنودا متفرقين لا يتجمعون معا في
فرقة مستقلة .

وكان رئيس الدولة يضيف إلى ولاية السيادة وقيادة الجيش صفة
الخلافة الدينية ولقب « أمير المؤمنين » .

... להחליט על

مجلسه اول در روز پنجشنبه ۱۳۰۲/۴/۱۵
در محل اجتماعات و محاضرات

۱۰۵

[illegible]

۱۵. منہ سے نکالنے والی ہوا کی مقدار اور اس کی کیفیت۔

(၁) ပုံစံအရ အောက်ပါအတိုင်း ဖြစ်ပေါ်နိုင်သည်။

(1) $\int_0^1 x^2 dx = \frac{1}{3}$

(1) $\int_0^1 x^2 dx = \frac{1}{3}$

[illegible][illegible]

تاریخ ۲۸ جمادی الثانی ۱۲۸۱

၁။ အသံအသွယ်

אין יאזעבאל וואס איז געווען דאס אלטע ירושלים.

1851

١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

[Faint handwritten text]

היה זה יום שבת ויום טוב
והיו כל ישראל שמחים

הַיְיָ אֱלֹהֵינוּ יִשְׁמְרֵנוּ וְיִשְׁכְּלֵנוּ וְיִשְׁמְרֵנוּ וְיִשְׁכְּלֵנוּ

• **היה צריך**

— ۱۰ —

[illegible]

وتمت الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتمت الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

[illegible][illegible]

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥ १ ॥

، انفصل الخلافة عن الدولة ضرورية قاسرة ومصلحة مختارة ،
الخلافة من الأمة العربية ، وقد تبسط الكراكي في سرد
اسباب التي قضت أحوال الحكومات الإسلامية ، وشعرها
حظها ، ولكن الغاية الجوهرية التي لا ترتبط بتلك الأحرار .

يكرر الخليفة عربياً .

أن يكون اختياره بالانتخاب .

أن تكون وظيفته روحية .

أن يماونه مجلس شورى تمثل فيه جميع الشعوب الإسلامية .
أن تنفذ وصاياه طرعية في المسائل الدينية ، ولا تعرض في
كلمات سياسية .

من التمس لقيام الخلافة بأعداد الأدهن في العالم الإسلامي
النظم وإيثاره على نظم التقاليد التي فرضتها مآرب أصحاب
سائس الدعوة المفرضين بعد عصر الخلفاء الراشدين ،
له المهمة جمعة منظمة تعمل أساس الشورى والاختيار
ما في ميناء متوسط كورسعيد أو الكويت ، ثم تعلن دعوتها
لإزالة الأمور في الأنظار الإسلامية

من تفصيل الخطط التي ومهما الكراكي للتدرج في تحقيق
قوة على هذه الصورة أنه كان شديد الحذر من مقاومة دول
تعتبر مسألة الخلافة الإسلامية ، وأنه أفرط في الحذر
حساب الثقة والحاملة على كل حساب يشغل في حياته ،
الحقيقة حين أهتم بتفسير لرياضة الجهاد على النحو الذي يزيل
يل ويخاف الأمم من غير المسلمين على التعميم ، فقد أصاب

قال بعد أن بين أ
واجبات الخلافة كما
رعيتها : إلى أذكر
كانت معصية للدين
عثمان - قد قدم الملك
الأسبانيولى ثم مع زوج
آمن النول العربية في
الامبراطورية الشرقية
السلطان سليم هنر بال
الجنة . وبينما كان
يقفهم في الأندلس ،
إلى إعلان الرنفس ..
بجرد تصديق مذهب
الأفغان اقتسام فرس
خمس عشرة دولة و
المسلمين وهولادة على
وباغت العسكر العزاز
العبد ..

قال : و أليس
مساهمة وتركوا الممالك
الإسلامية للطامعين وتر
ولم يشأ الكواكبي
الاختيار في هذه الأة
وهي فشل الصدى
وصحوبة الوحدة الجامعة

الله في مجرد محاربة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع لدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً . وبذلك يشعرون أن قصر معنى الجهاد على الحروب كان مبنيًا على إرادة فتوحات ... كما أعطى اسم الجهاد مقابلة لاسم الحروب الصليبية ...

وكذلك أصاب حيث ذل : « إن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم بل يستلزم الألفة ... وإن العرب أيم حلوا في البلاد جنّبوا أهلها بحسن التدور والعدل لدينهم وانتمهم ... »

ولكنه بالغ في دفع الخوف واتقاء المقاومة حين استورد فائلا إن العرب لم ينفروا من الأمم التي حلت ببلادهم وحكمهم . فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك ، بل يتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يدعون بكلمة ربه سبحانه وتعالى شأنه .. (وذلك الأيام تدولها بين الناس) ..

ثم كشف عن أسباب تلك المبالغة في التفة حين قال بعد ذلك : « فإذا علم السامعون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحلون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالجهم انحصوصية وصرلح التصراية وصوالج الإنسانية أن يزيادوا قيم الخلافة العربية بصورة مخلودة السطوة مربوطة بالشورى على التسق الذي قرأته ، »

فالكواكبي « للهلوماسي » اسبابي هذا أظهر من الكواكبي الثاني . « وأم اقري » منا أسلوب من العمل غير أسلوب « طبائح الاستبداد » . فان الكواكبي ثائر لم يقبل من السلم أن يذعن للقبص والسيطرة في حكومة مسلمة ، ولم يحمد منه أن يستكين لدور النوب وحكم الأيام جهلا بمعنى التسليم للقضاء ، وإنما هي مزالق الحيلة لا تؤمن مزلتها في طريق الثورة ولا سلاما من عثراتها قبل استوائها على جاذبها المتلى .

على أن الكواكبي الثائر كدد أن يتكشف لثارته في « أم اقري » موقى صدد الكلام على الخلافة والدول الأجنبية ، حيث قال وهو يتكلم

عن النضية الخامسة والأربعين : « إذا صدفت الجمعية مدارضة في بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد - ولاسيما البلاد التي هي تحت استيلاء الأجانب - فالجمعية تطرح (أولا) بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة « اقتنعها بحسن نية الجمعية . فإذا توفقت لرفع الفت فيها ، وإلا فلتلجأ لجمعية إلى الله لقادر الذي لا يعجزه شيء ... »

ومراد الكواكبي من عبارته هذه واضح عند من يفهم أن اللجوء إلى الله « التسادر الذي لا يعجزه شيء » يعني كل شيء غير التسليم والتكوص عن العمل الذي بدأ وتندم وتمت له أسباب التدبير

...

إلا أن الثارئة يستطيع أن ينفذ إلى الغاية الجوهرية في أمر الدولة والخلافة من وراء الحطط أو تخافج تحمة التي قد يح لبعض الأزمنة ولا تصيح لغبرها ، والتي رستها الحوادث للكواكبي ولم يرستها لنفسه باختياره . ولعله كان يعيد به النظر و تراخي به لأجل - فيمحو منها ويثبت وي زيد عيب وينقص منها ، ولا يدعها - لثلفتة - بأية حال - حل الصورة التي بنيت له بعد نصف قرن من وفاته .

فإذا قلنا الثارئة من وراء تلك الحطط الموقوتة إلى الغاية الجوهرية فلا نزاع أن تلك غاية ولا في الإيمان بأن الوصول إليها هر مبعث الدعوة التي اضطط بها وصمد عليها ، وخلاصتها في كلمات معدودات أن دعوى الخلافة في القسطنطينية لا ينبغي أن تعرف الأمة العربية عن نهضة الإصلاح والحركة .

...

النظام السياسي

علوم السياسة أقرب العلوم إلى أن تكون اختصاصاً ، للكواكبي بين دراسات عصره . فقيم ذلك من كلامه في مقدمة « طبائع الاستبداد » كما نفوسه في مباحث الكتاب كله ، لأنها مباحث مشروحة على إيجازها لا يجوز فيها فلم كاتب لم يتوسع في هذه الدراسات .

ونكتنا قد علمنا من طبيعة تفكير الكواكبي أنه يدرس لعمل وينفذ ، أو ليس على وسائل العمل والتنفيذ : فكل ما كتب في موضوعات العلم السياسي فهو من قبل « المذكرات الإيضاحية » التي تبين حدود العمل المطلوب وتبين الطريقة التي تتبع في تنفيذه ، وما عدا ذلك من مباحث النظر والتأمل فقد بقيت في كتاباته المعروفة « وؤوس موضوعات » لم يتسع له الوقت لاستيفائها ولعله لم يجد من لوازم عمله أن يستوفيهما على المنهج المدرسي كما يصنع الباحث الذي يدرس الموضع ليؤلف فيه أو ليعطاه بنصيبه والإقناع به من الوجبة النظرية . وإنما أحاطا بعناوينها الغميلة لمن يريد أن يرجع إليها في مصادر التخصص والبيان ليصحح النظر أو ليحقق وسائل العمل .

ومن قبيل هذه المباحث التي تتركب « وؤوس موضوعات » في الصفحات الأخيرة من « طبائع الاستبداد » قوله في مبحث الحقوق العمومية : « هل للحكومة صفة المالكية : أم صفة الأمانة والنظارة على الأملاك العمومية » مثل الأراضي والمعادن والأنهر والسواحل والقلاع والمعابد والأططيل والمعدلات ، ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار ، ومثل حقوق إقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترق الاجتماعي وإيجاد التضامن الإفرادي ، إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد أن يتمتع به وأن يضبط ؟ » .

ومن هذه المباحث قوله عن توزيع السلطة : « هل يجمع بين ملكتين أو ثلاث في واحد ؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم من يقوم بها بائقان ولا يجوز الجمع منعاً لاستعمال السلطة ؟ » .

وقد أثبت من عناوين هذه المباحث خمسة وعشرين عنواناً قال عنه : « إن كلامها يحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والتقصيات الخصوصية » .

ثم مضى قائلاً إنه ذكر : « هذه المباحث تذكره للكتاب فوق الألباب وتنشيطاً لتجاء على الخوض فيها بترتيب : اتباعاً لحكمة إثنين البيوت من أبوابها ، وإن اقتصر على بعض الكلام فيها بملق بالمبحث الأخير منها فقط : أعنى مبحث السعي في رفع الاستبداد .

ونما خص هذا البحث الأخير لأنه يمس فيه التولية العملية في لا يكون فيها مجرد الأمن وتقليب وجوه النظر في مختلف الآراء ، وقت شأنه في كل ما يكتبه عند وجوب التفرقة بين ما يدرس وما يعمل ووجوب التفرقة أيضاً بين ما يشرع في عمله وبين ما يؤجل إلى حين ليس في أوانه .

ولا ننسى أن الكواكبي كان يكتب ما ينوي إعلانه في بلاد ذممة للسلطة . فثابتاً ، سواء منه ما كتبه في حلب قبل هجرته الأخيرة وما كتبه في مصر باسمه الصريح أو باسم مستعار ، فلم يكن في وسعه أن يعلن ما يتنهى لقانون ويمنع النشر الشائع بين النشرين ، ومنهم من صرح لصحف والمطابع التي تدين بلولاء للدولة صاحبة السيادة ، ولكنه كان يتحرى التعبير عن رأيه بالأسلوب الذي يسل عليه دلالة لا شئ فيها فدون أن يخرج بالنص المكتوب عن حدوده القانونية . وعلى صعوبة التعبير البين عن خطط الثورة لم يكن يرغبه في مسألة النظام السياسي بالترتيب المجهول عند قرائه ولو لم يكن منهم من ينهض ويسمع منه نرى الصريح فيها يريد به وفيما يراه .

نلم يكن أصرح - في حدود القانون - من دعونه للعرب إلى الاستقلال بحكم أنفسهم حيث يقول في « أم القرى » إن التطبيق في الجنس بين الراعي والرعية يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكم المتيقن :

وإنما الناس بالملوك ولا يفتح عرب ملوكها عجم

وما لا خلاف في أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخلق بأخلاق الرعية وتتخذ معها في عوائدها ومشورها .

بل هو يصرح بما هو أقوى من ذلك وأدل على رأيه في حكومة عصره التركية . إذ يقول إن التطابق بين الراعي ورعيته من العرب هو الواقع الممكن الذي لا محيد للحاكم عنه وليس تصارى الأمر فيه أنه سياسة حسنة أو نصيحة مستحقة : ويستشهد بذلك بأحكام - غير العربية - التي حكمت العرب قبل الترك العثمانيين إذ يذكر آت بويه والمسيحيين والأيوبيين والفرجيين والأمراء الأبراركة وآل محمد علي . ثم يقول : « فإنهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب وامتزجوا بهم ومزجوا جزءاً منهم . وكذلك المغول اتناثروا صاروا فرماً وهنداً فلم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك أي العثمانيين . فإنهم بالعكس يستعربون بحفاظتهم على غيرة وعياهم لهم . فلم يهجو بامتزاجهم لما أنهم لم يتبلوا أن يستعربوا . والتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتأثروا ، ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم بشال عليه من أقوام التي تجرى على ألسنتهم » .

• • •

ولا حاجة بالكواكبي بعد هذا البيان عن ضرورة انطباق بين الراعي والرعية إلى كلمة مربية أو غامضة بلاء الرعية التي ينبغي أن تنهى إليها مساعي العرب في يفتلهم . فلا بد أن يفتلوا ... ولن يفتلوا وهم

عرب يملكهم عجم ... وملوكهم القانون لا يملكهم ولا يروهم أن « يشترك » رعايهم ، ومنهم من يؤثر أن يتفرنس ويتألق ويتبعه نحو العرب ولا يحول وجهته إلى قبله شرقية .

والغاية المأملة أمام المجاهدين في سبيل ليقظة العربية هي « الاستقلال » وإقامة الدولة التي يقيسها العرب ويرعاه العرب ، والمطابقة في نظر تحقيق هذه الغاية بخير ما يمكن من وجوه الإصلاح التي تزيد أسباب الخلل في إدارة السلطنة العثمانية وأهمها - فيما يهم البلاد العربية - التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على تحال تلك الأطراف المتباعدة . وخصائص مكنها .

ويلحق بهذا السبب بيان آخران يسو للنظر لأول وهلة أنهما متناقضان لولا أنهما يرجعان إلى حالتين مختلفتين ، وهما حالة الرعية الشريفة وحالة الرعية الأجنبية غير العربية من تدخلهم قوانين الامتيازات والقوانين اعلى المقصودة عن بعض الأقاليم .

فالسبب الأول يرجع إلى « توحيد قوانين الإدارة والعقوبات مع اختلاف صيغ أطراف المملكة واختلاف أحوال والأجناس والعادات ... » ولا يخفى ضرر هذا التوحيد من الوجهة الاجتماعية والإدارية حيث تقع الإحراجات ، الواحدة في المقاضاة وتفسير المتوازين بين أطراف دولة تمتد من وادي النهرين إلى البحر الأبيض ومن البحر الأسود إلى خليج عدن ، وتسمى على أقسام يتوزع من الانحلال ... بين الأرمن والترك والشرقاء والعرب والحضر والبادية .

والسبب الآخر يرجع كما قال الكواكبي إلى « تنويع القوانين الحقوقية وتشريش القضاء في الأحوال المتميزة » .

ففي ظاهر الأمر يبدو أن صاحب « أم القرى » يشكو في وقت واحد من توحيد الإجراءات والقوانين ومن تنويعها واختلافها ، وهي

شكوى متناقضة ولكنه تناقص في الظاهر دون حقيقة كما أسلفنا . لأن هذه الشكوى في مضمونها أم القوي خاصة - إنما يثيرها التوزيع الذي يقوم على التمييز بين جنس و جنس وطائفة دون طائفة إذعاناً للمعاهدات الأجنبية قارة أو مراعاة للمنازعات الطائفية واستبقاء لبراعت تلك المنازعات نارة أخرى . وقد كان هذا التمييز عرفاً شائعاً في نظم الدولة بهم تشريعات لإدارة الأحوال الشخصية ويختلف بالإقليم الواحد بين فئة وفئة وبين عشيرة وعشيرة ، ولا ينتصر على الأجانب ولا على الأقاليم التي نشبت فيها الثورات وتدخلت فيها ليعول لتقرير نظم الولاية أو الإدارة فيها . فالكرواكي كان يشكو في الحالتين من شيء واحد ، وهو مخالفة الشريعة للمصلحة إما بالتسوية حيث تفرق الأحوال أو بالتفرقة حيث تلزم العدالة والمساواة .

وربما أضاف الكرواكي شكواه الفنية إلى هذه الشكوى الاجتماعية من تلفيق لقوانين والإجراءات . فإنه - وهو الخبير بفقه التشريع - كان يكره من دعاء التجديد من فلهاء الترك أنهم على تقديره لم يحسنوا المحافظة ولم يحسنوا الابتاع . وأن الدولة ترخصت في تبديل قواعد تشريع لغير ضرورة وتشدت في بعضها الآخر كذلك لغير ضرورة ، وجاءها أكثر من هذا الحل في السنين منة الأخيرة . أي بعد أن اندلعت لتنظيم أمرها ففعلت أصولاً القديمة ولم تحسن التقليد ولا الإبداع فنشلت حالها ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة وغرب الثلث الباقي وأثرف على الضياع ، لفقد الرجل وصرف حاضرة السلطان قوة سلطته كما في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل لإصرار على سياسة الانفراد .

وقد صرح الكرواكي بالحر الملأمة لهذه المشكلات أسبابية والقانونية لبلاد العرب ، وبلاد الدولة عامة ، في أطوار الانتقال ، فقال في هامش الصفحة التي سرد فيها أسباب التحلل من أم القوي إن من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي

إدراى ينسب عاداتهم وطباع بلادهم كما هي الحال في إمارات أذربايجان وولايات تركيا الشمالية . وكما يفعل الإنكليز في مستعمراتهم ولوروس في أملاكهم .

ولحقى هذا الحل أن يؤخذ لدى عرف بعد ذلك باسم « اللامركزية » . وشعر صامع الترك أنفسهم بضرورته بعد تفكير الكواكي فيه بسنوات . فهو - و « ريب - رائد الدعوة اللامركزية التي جهر بها « حزب الائتلاف والحربة » وضم إليها أداساً من زعماء الترك والعرب وبعض الأكرام المتكبرين في تركيب السلطنة العثمانية ، وكانوا يتنادون بالائتلاف لتكوين السلطة من الشعوب المتألقة مع استقلالاً بحكوماتها الخاصة . ويتنادون بحرية لتعليب حقوق الشعوب في سياسة أمورهم عن حقوق السلطنة المنحدرة بالحكومة المركزية ، ويتبادلون بذلك دعوة التركيين المعروفين باسم حزب الاتحاد والترقي يريدون بذلك أن تكون الوحدة تركية في الدولة خالصة على الائتلاف ، وأن تكون حجة « تحرق » بقيادة الرئسة الحاكمة خالصة على حجة المطالبة بالحربة لكل ولاية من أفراد .

ولا نجتنا مؤلف « طابع الاستبداد » إلى مراجعة ومقابلة علم بصفة الحكومة التي يختارها ويسمى إليها . فلا بد أن تكون - بالبناء - حكومة غير مستبدة أو « حكومة مسئولة » .

أما انشوان الذي يظن عليها في مصطلحات العلم السياسي فليبين أن يتوافرها بين الشروط الكثيرة شرطاً على الأقل من شروط الحكومات المسئولة . وما أن تكون « ديمقراطية اشتراكية » .

وقد عرف الاستبداد تعريفين مختلفان بعض الاختلاف للفظ ويطلقان كل الانشوان في المعنى والنتيجة .

فالاستبداد كما قال في مقدمة طابع الاستبداد هو : « التصرف في الشؤون المشتركة مفضي الحق » .

أو هو كما قال بعد ذلك : « نصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بلا خرف تبعة » .

ويمتنع الاستبداد - نظراً ونعلاً - بقيام الحكومة المشولة ، وأفضل هذه الحكومات التي تجتمع هامياً الديمقراطية والاشتراكية ، وتراعى هنا طبيعة التفكير العملي التي تبرز بآراء الكواكبي في كل مسألة ينسج فيها بحال بحث والمناقشة وتتسار في رجوع النظر عند تحقيق نيتها العملية وضمان المصلحة المنشودة بضمان تلك النتيجة .

لليست أميرة عدد الرجل لعالم فمناظرة الاستبداد أن يتوافر للحكومة شكل من أشكال الدستور وصورة من صور الحقوق الكثيرة التي ترشح أفراد الرعية للنيابة أو الانتخاب ، وإنما المهم في جميع الأشكال على تعدد تعطلات والتساير أن يكون ولي الأمر مسئولاً عن عمله فحاسباً عليه ، وأن يمتنع عليه الاستبداد وهو التصرف بطوى والأمان من التبعة وبلاخشية حساب ولا عذاب محققين .

فلا يمتنع الاستبداد باشتاع حكومة الفرد ولا بتحقيق الحكم الصالح . فشارك الكثرة فيه أو بتأيد الكثرة للحاكمين المتعددين ، أو كما قال في مقدمة : « إن صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد اطلق الذي تولي الحكم بأقلية أو بالوراثة - تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد لوارث أو المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو مستخيراً لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وإنما قد يبدل نوعاً ، وقد يكون أحكم وأخبر من استبداد الفرد ، ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المرفقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ . لأن ذلك أيضاً لا يرفع الاستبداد ولا يهتفه بما لم يكن المتفنون مسئولين لدى الشرع ومن هؤلاء مسئولون لدى الأمة التي تعرف أن تراقب وتؤدي الحساب » .

ولا يمتنع الاستبداد في شكل من أشكال الحكومة مع خفلة الأمة .

وقدرة الحاكم على تفضيلها والتوجيه عليها . قال : « إنه ما من حكومة عدلة تأمن المسئولية والمواخلة بسبب من أسباب خفلة الأمة أو إغفالها لها إلا وتسلخ إلى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمته شيء من القوانين اللطيفين المهورين : حيلة الأمة واحتود المنظمة » .

ومن علامات الحكومات العالمة التي يتعلم عليها الاستبداد في رأي الكواكبي أن يشارك فيها من عنانهم القرآن الكريم بأمس الذكر واصطلاح الفقهاء على تسميتهم بأهل « الحل والعقد » من قادة الأمة وهماها . قال بلسان الإمام الصيني في أم القرى : « هؤلاء الذين نسميهم عندنا بالحكام هم الذين يطلق عليهم في الشريعة الإسلامية اسم أهل الحل والعقد الذين لا تتعد لإمامة شرعاً إلا ببيعهم . وهم خواص الخفة العليا في الأمة الذين أرائه سر شانه نبيه يشاورون في الأمر . كنهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة واقفون في الحكومة الإسلامية مقام عاص النواب والأشراف في الحكومات المقيدة » .

وإذا أشار الكواكبي إلى طبقة العليا في « أم القرى » أو « طابع الاستبداد » لم يدع أحداً من قرائه يفهم أنها الطبقة العليا بالأدب أو الطبقة العليا بالمراث ، لأنه يسمي أصحاب الألقاب من خدام الاستبداد (بالمجدين) أو أدعياء الهد ويقول إن هذا التيب « خاص بالإدارات الاستبدادية وأن الحكومة الحرة التي تعمل سواطف الأمة تأبى كل إيذاء بخلال التساوي بين الأفراد لا موجب حقيق . فلا ترفع قسراً أحد منها إلا أثناء قيامه في خدمتها . أي الخدمة العمومية : كما أنها لا تميزه بوسام أو تشرفه بنقبة إلا إعلاناً لخدمة مهمة » .

وإنما يكون التبع كما قال : « أن يتخذ الرجل ميقاً من قبل الجبار يبرهن به على أنه جلاذ في دولة الاستبداد ، أو يحق على صدره وساماً مشعراً به ورواه من الوجدان المستبشع للعنوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تفيد بأنه جبار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة

أوضح وأخصر هو أن يصير الإنسان مستقيماً صغيراً في كنف السيد الأعظم .

وطبقة الميراث ، ما لم يميزها العلم والخلق الرفيع - هي جرثومة البلاء كما قال ، وأبناؤها وهم لأكثر عدداً والأهم موقعاً وهم مطمح نظر السيد في الاستعانة وموضع تحته .

قال من كلامه عن الاستبداد والمجد إن هؤلاء الأصلاء هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل ، لأن بن آدم داموا بخرواً متساوين إلى أن ميزت الصدقة بعض أفرادهم بكثرة الفضل فنشأت منها القرات المعيبة وتشتت من تنازعها فتميز أفراد على أفراد ، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء . فالأصلاء في عشرة أو أمة إذا كانوا متقاربي القرات امتدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشرف ، ومن وجد بيت من الأصلاء يتميز كثيراً على باقي نبيوت يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المتينة إذا كان باقي نبيوت بقية بأس ، أو المطلقة إذا لم يبق أمامه من يتقبه .

ثم قال : « إذ لم يرحل في أمة أصلاء بالكلية ، أو وجد ولكن كان لسواد الناس صوب غلب ، قامت تلك الأمة فعلاً وحكماً لنفسها حكومة انتخابية لا وراثية فيها خدام ، ولكن لا يتوالى بضع متوالين إلا ويصير أناسهم أصلاء بالتقرب ، كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استعداداً للمغاية وإعادة التاريخ الأول .. »

...

والطبقة العليا - في تعبير الكواكبي - لا تعني طبقة من طبقات المظاهر المصنوعة ولا المظاهر الموروثة : لا تعني حملة الألقاب والرتب التي يخلعها الحاكم المطلق على خدامه وعبيد مملوكيه ، ولا تعني أصحاب الرجامة المنقولة من الأسلاف إلى الأعقاب دون أن ينقل معها سبب من أسباب الرجامة الناعمة . وإنما لطبقة العليا في تعبيره صفة -

صانع الاستبداد : و « أم لقرى » ، هي الطبقة التي استعدت بكفايتها ودريتها قيادة الأمة والاضطلاع بالخدمة العمومية . والسبق إلى تكاليف العمل والمعرفة ، بتولاها وكالة عن جمهرة الأمة ، ولابد في ولايتها من صيرت غالب لسواد الأمة ، على أية حال ، كما يؤخذ من حصانه لأسبب فساد الحكومة فيها جميعه من هذه الأسباب السياسية والأخلاقية في فصل خاص أخذه بفصول أم القرى .

وأياً كان مفاد « الطبقة » في تعبير الكواكبي خاصة بقوام النظام لصالح كه أمران : أن تتساوى الطبقات في الحقوق القانونية . وأن تتقارب في الثروة ودرجات المعيشة .

فلا متاس من إعداد الشعوب لئيل « الأخوة العمومية بالتجاوب بين الأفراد والتعانة بالمساواة الحقيقية بين الطبقات » .

ولا مناص من توزيع الثروة توزيعاً يتنوع به التفاوت . فإن الاستبداد كما قال في طبائع الاستبداد هو الذي جعل رجال السياسة والأديان ومن يلتحق بهم ، وعددهم لا يتجاوز الخمسة (١) في المائة يتمتعون بنصف ما ينجم من دم البشر أو زيادة .

قال : « وإن أهل الصنائع الخفية والكهالة والتجار الشرهين والمحتكرين وأمثال هذه الطبقة - ويقدر أن كذلك خمسة في المئة - يعيش أحسن عيش ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصنائع والبراع ، وهذه الخمسة المتفاوتة بين بني آدم وحراء إن هذه النسبة المتفاوتة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي ، كما قل وكبر المثل مما تعود إلى بيان رأيه المفصل فيه عند الكلام على برنامج المختار لإصلاح الحياة الاقتصادية .

ويقتضيه التساوى بذلك الطبقات على هذا المبدأ ألا تستأثر طائفة من الأمة بنصيب أمل العلم والدراسة ، بل يكون حكماء الأمة كما قال

(١) في أصح الأقوال واحد في المائة .

بمسان الحكيم العيني - من أي طبقة كانت من الأمة . إذ قضت سنة الله في خلقه ألا تخلق أمة من الحكماء .

ولا فرق بين طائفة وملائكة في تخلق بأخلاق الاستبداد متى قام الأمر على الحكم المطلق وامتنعت المساواة في الحقوق بين الناس : فإن الحكومة المقبلة تكون طبعاً مستبدلة في كل نروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع : ولا يكون كل صف إلا من أسفل أهل طبقته انحلالاً . لأن الأمائل لا يهمهم جلب محبة الناس . إنما غية مسعهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته . وأنصار لدولته ، شرمون لأكل اللقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم وبأمنونه يشاركونهم ويشاركونه . هذه الفئة المستبدة يكرر صدها . ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على العصف احتاج إلى زيادة جيش المشجدين العاملين له : واخافظين عليه واحتاج إلى المدد في اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم نمين أو وجدان ، واحتاج إلى حفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي أن يكون أسفلهم طبعاً أعلاهم وظيفة وقرباً . . .

• • •

وانكواكبي يذكر السلف الصالح للاقتداء به في أخلاق الرعاة والرعايا ، ولكنه يحذر هارته ويحذر التحاير مرة بعد مرة من انخط بين الاقتداء بأخلاق الحاكمين الأولين وبين الدعوة إلى تقديس أولئك الحاكمين أو إخطائهم بهالة من عصمة الربوبية أو الرسالة . فإنه - مع تحريره أن الخلافة الإسلامية لم تثبت من قبل لقب الخلفاء الراشدين وحده معدودين من أمثال عمر بن عبد العزيز - يرى أن الفصل بين الملك والخلافة ضرورة لا يحصر عنها كى ينسب للرعية أن يمسو ولي الأمر وينموا ولاية الأمر على أساس الحكومة المسؤولة ، وقد بحال بينهم وبين ذلك باتتحد صفة القداسة التي يتعم بها الخليفة من محمية رعاياه ومراجعة الأمة في مجموعها لسياسة الدولة .

ولا أكثرث للصور والأشكال في كى ما تقدم من قواعد الحكم وأظمته وسائر شروطه . فكى صورة إيمان صور الحكم حسنة زفعة إذا تمكنت فيها المحاسبة ولحقت فيها تبعات الحكم فعلا بمن يتولاه ، وكى أمة قادرة على نخاسة حكمائها إذا عمت فيها المساواة الحقيقية وامتنع بها شغافون البعد في الأرزاق والأقدار ، وانجبت عنها غشاوة الفقه بين عامة أهلها وارتفع إلى مكان القيادة من استعد بكفايته ودرأته لقيادته . كائناً ما كن منشؤه من عامة طبقاتها .

• • •

النظام الاقتصادي

قلنا في الكلام على النظام السياسي أن الكواكبي يعتبر التفاوت في الثروة دعامة من أقوى دعائم الاستبداد ، لأنه يسمح لأصحاب النفوذ الديني أو الديني - وهم لا يتركون عن الخمسة في المائة من جملة السكان - بأن يستثروا لأنفسهم بنحو نصف الثروة العامة .

وهو ينكر على هذا الإنكار أن يحصل مثل هذا التفاوت بأية خريجة من الذرائع ولو كانت خريجة لعمل والصناعة ، فليس من الجائز أن يعيش إنسان واحد مثل ما يعيش به المئات أو الآلاف لأنه يضيق على غيره بعمل بارع أو صناعة نفيسة ، ولا لأنه يحسن الوساطة والمداورة في سوق البيع والشراء أو في سوق الفكر والضمير . فهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلاً ، إنما يعيشون بالحيلة كالمساهرة والمشرذمين باسم الأدب والدين ..

والمال على العموم لا يجتمع في أبدى الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والجداع .. وليس من شأن امتلاوت في القدرة والهمة أن تمنح إنساناً واحداً ما يقوم بفئات الآلاف من الناس ، وليس هذا التفاوت مما يحتاج إليه العامل المنقذر لإثبات عمله أو محتاج إليه المجهند الطموح لاستنهاض همته وإشباع طموحه ، بل ربما كان فيه مدرجة للعواية والبطالة ومدعاة إلى الإسراف والإسفاف .

وليس المطلوب أن يظل تفاوت بين الناس في المعرفة والذكاء . ولا أن يظل التفاوت بينهم في المساعي والجهود ، فلا يقتضي الأمر كما قال « أن يتلوى العالم الثرى صرف زهوة حياته في تحصيل العلم والتلاع أو الصنعة لمقابلة بليلك الجاهل النائم في ظل الحائط ، ولا ذلك

التاجر المجهند المخاطر بالكسول الجاهل ، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت ، بل تقتضي لإنسانية أن يأخذ الراقى بيد السافل فيقر به من منزلته ويقر به في معيشته وبعينه على الاستقلال في حياته .

وأما نحن جهد المجهند وعلم العالم فلا يجوز أن يزيد الرزق على الحاجة تلك لزيادة المفرطة حتى تسمح لطائفة من الأمة بتسخير جميع طوائفها : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان . وهذا معنى الآية : - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - . تفرغ الثروات الفردانية في جمهور الأمم أكبر من نعمها ، لأنها تمكن الاستبداد الداخلي فتجس الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل للأمم حتى تقف بغناء أفرادها التعلد على حرية واستقلال الأمم المزعومة . . .

...

وتظهر لنا سعة إطلاع الكواكبي في مثل الإصلاح من حاطته بأواش الأعمال والآراء التي كانت تحسب في أواخر القرن الماضي طليعة سائفة ، بر طليعة منهجمة . في مجال الإصلاح الاقتصادي والتأهب الاشتراكية . فذكر تحديد الملكية الزراعية وذكر دعم المرافق العامة ومضت معه خمسون سنة قبل أن يتيسر تنفيذ هذه الآراء في بلادنا العربية .

قال : « هذه إيرلنده مثلاً قد حماها ألف مستبد مالي من الإنكليز لينتموا بشئ أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرات ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة إيرلنده . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستوقها سلاً . وكمن بشر في أوروبا الحديثة - وعصرماً في لندن وباريس - لا يجد أحدهم أرضاً بنام عليها متدداً ، بل يتامون في الطيفه السفلى من بيوت حيث لا يتام البحر ، وهم قاعلون صغرفاً بمنزلون بصورهم على جبال من مسد منصوبة أبقية ، يشنون عليها بمن وبسرة . » (الكواكبي)

قال : « وحكومة الصين المختلفة النظام في نظر الصينيين تحرم قوانينها أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً أى نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر فوناً عثانياً ، وروسيا المبتدة القاسية في عرف أكثر الأوروبيين وضعت أخيراً لولاباتها البولونية والغربية قانوناً أشبه بقانون الصين وزادت عليه أنها منعت صناع دعوى دين غير منسجل على فلاح ، ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسين فرنك ، وحكومات الشرق إذا لم تستدرك الأمر فتضع قانوناً من قبيل قانون روسيا تصبح الأراضي الزراعية بعد خمسين عاماً ، أو قرن على الأكثر ، كإيرلند ، الإنجليزية المسكنة .. »

وقال بعد أن قرر أن الشرط الأول لإحراز المال أن يأتى من بلد الطبيعة أو بالمقايضة أو في مقابل عمل أو مقابل ضمان :

« والشرط الثانى ألا يكون للثروة نصيبين على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصنوع والعمال والضعفاء والتغلب على المباحثات مثل امتلاك الأراضي التى جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته ... »

...

وعلى هذا الصبق إلى الإحاطة بالآراء المستحدثة يفتين من ثانيا أقواله العامة في لاقتصاد أنه كان يتصور معارفه الاقتصادية من أصولها التى تقدم بها الزمن أحقاباً طويلاً قبل عصر الميلاد . فلا شك في اطلاعه على قواعد الاقتصاد السياسى فيما كتبه أرسطو أو فيما نقل عنه . فإنه يحصر أسباب الرزق في موارد الثلاثة وهى الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرف هذه الموارد كما عرفها أرسطو حيث يقول عن الزراعة إنها استخراج ممرات الطبيعة ، وعن الصناعة إنها تهيئة تلك المواد للاستفاد منها ، وعن التجارة إنها توزيعها على الناس ، وكل وسيلة تخرج عن هذه الأصول وفروعها الأولية فهى وسائل ضالة لا خير فيها ... »

وعند الكواكى أن الإنسان النافع لنومه لابد أن يؤدى عملاً من

هذه الأعمال في أصولها وفروعها التى لا تتران إلى ليوم مورد الرزق المشروع في عرف خبراء الاقتصاد والسياسة ، وعلى كل فرد من أفراد الأمة « متى اشتد ماعده أو ملك قوت يومه : أو التصاب على الأكثر ، أن يسمي لرزقه بنفسه أو يموت جوعاً » .

ثم يطف فيقول : « وقد لا يتأتى أن يموت الفرد جوعاً إذا لم تكن حكومته مستعدة تضرب على يده ومعه ونشأته ... »

إذا حدث العجز عن كسب رزق لسبب قاهر غير الكسل والتقصير فالأمة مشغولة عن إزالة هذا العجز أو معونة المبتلين به على المعيشة لئى لا يقدرون على تحصيلها ! « فالعدالة المطنة تقضى أن يؤخذ خمس من مال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل لتعجيل ولا يموت النشاط للعمل » .

وهذه سياسة تتحراها أمم العرب الحديثة إشاراً للسلامة بعد أن رشح لها وبال العاقبة من جراء الظلم في توزيع الثروة . ولكنها فريضة يقرها الإسلام ديناً وبين جنبها اتباع أحكامه . لأنه يقرر صرف العشور والزكاة في المصارف العامة ومنها سداد الديون : « ولا يفتى على المدين أن جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال يقرب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمئة سنوياً » .

وقرر الكواكى - ولعله يفتنح في ذلك إلى الأخذ بالمذهب الظاهري - أن الأرض الزراعية ملك عام للأمة يستثنى ويستمتع بغيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذى لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال ... »

فالمعيشة الاشتراكية - في حكم الدين والحياسة الزهيدة - هى « أبداع ما يتصوره العقل ... لولا أن البشر لم ينفرو بعد من الرقى ما يكتفى بتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العاشية إلى إنارة الأمم الكبيرة ... »

وعلى هذا ينحصر برنامج الكواكبي الذي اختاره لتدبير الثروة العامة في الاشتراكية التي تقوم على المبادئ التالية :

- (١) تعميم العمل النمر بين أفراد الأمة وتحريم الكسب بغير عمل مشروع .
- (٢) اجتذاب التميز بين أفراد الأمة بغير مزية لازمة للخدمة العامة .
- (٣) اجتذاب الثغرات المفترقة في توزيع الثروة بين الأفراد أياً كان حفظهم من الثغرات في الكفايات والأعمال .
- (٤) قيام المجتمع على التعاون والتضامن بين العاملين فيه ، وإزالة أسباب انحاز عن الكسب أو معونة العاجزين عنه لضرورة من ضرورات المرض والحرمان .
- (٥) تأمين المرافق العامة ومنع الاحتكار .

وبهذه المبادئ على عمومها ينحصر الكواكبي في زمرة الاشتراكيين لا أمراء ، ويلتقي بأهم المذاهب الاشتراكية في أصل من أصولها الكبرى . ويكاد أن يجرى مع القائلين بالتفسير الاقتصادي لتاريخ في مجال واحد لولا فارق عظيم في تعريف المال ترتط به فوارق كثيرة .

فالمال عند أصحاب التفسير الاقتصادي مقدور على العملة ولا تفرقه . والمال عند الكواكبي هو « كل ما ينتج به في الحياة » ... « فلقوة مال ، والوقت مال ، والترتيب مال ، والشجرة مال .. » .

نعم . وكل ما يجرى فيه لمع والبتل لما يقول صاحب القانون ، أو تستعاض به القوة كما يقول صاحب السياسة ، أو تحفظ به الحراسة الشريفة كما يقول صاحب الأخلاق ، فهو مال .

و « المقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما وهما تحصيل لذة أو دفع ألم ... والحكم العدل في طيب المال وخبيثه هو الوجدان الذي خضعه الله صبغة لتفسيره عبر عنه في القرآن بقوله ته « فألمها فجورها وتقواها » . والوجدان هو مرجع الاختيار أولاً وآخره بين المال الحلال والمال الحرام .

• • •

التربية القومية

نفيد كلمة التربية في كتابي الكواكبي مقصدين : أحدهما التربية العامة وشمل كبار الأمة وصغارها ، وهي التي تنكسر بتهديب الصفات القومية وتوفير عدة الأمة من الأخلاق والعادات جلا بعد جيل .

والآخر تربية الناشئين في المدارس ومعاهد التعليم وتزويدهم بما يضعهم وينفع أممهم في أعمالهم الخاصة وأعمالهم المشتركة .

وعنده أن الحكومات المنتظمة كما قال في طبائع الاستبداد وتترى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء . وذلك بأن تعين قوانين التكميم ثم تعنى بوجود المقابلات والمفتحين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام المقطع ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب . ثم تسهل الاجتماعات ونمهد المراسم وتحمل المتندبات وتجمع المكاتب والآثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين للمحافظة على الآداب والحقائق وتسهر على حفظ العادات القومية وإخماد الإحساسات الملية وتقوى الآمال وتيسر الأعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت يوماً ، إلى أن تقو باحتفالات جنازة قوى الفضل على الأمة .. » .

وقد ألك الكواكبي « أم القرى » قبل تأليفه « طبائع الاستبداد » فأحصى بلدان الماسم الإنجليزي بعض مقومات التربية العامة التي ينبغي لها الغريون وهي يعارنه :

- ١ تخصيصهم يوماً في الأسبوع للطلاة والتفرغ من الأشغال الخاصة لتحصل بين الناس الاجتماعات وتتعقد الندوات فيباحثون وينتاجون .
- ٢ تخصيصهم أباماً يفرغون فيها لتذاكر مهمات الأعمال لأعظم وجناهم الماضي تشويقاً .

العضش ليفصد اجتماعات ويتحرى منها الخالية له عن المزاحمين ، وكيف يتزلف الناس ويومهم بلسان حاله أنه يحترف بالإسقاء كفاً للسؤال ، إلى نحو هذا من دقائق إيمان الصنعة المتوقفت عليها نجاحه ، وإن كانت صنعته بسيطة حقيرة .

والشخص في رأى الكواكبى علاج نافع لشقاء الأمم الشرقية من هذه الغزاة لأن الكياسة لا تنجح في الإنسان إلا في فن واحد فقط ... وما يجعل الله لرجل من فنيين في جوفه ، فالعالم من يتخصص بعمل واحد .

ولا عي - مع الشخص - من الترتيب في أنواعه ، ومنها ترتيب أوقات المراء حسب أشكاله وإشكال ما لا يسع الوقت له أو تقويضه إلى غيره ، ومنها ترتيب الفتة على قدر الكسب المتصور ، ومنها ترتيب أمر المستقبل ، لإراحة نفسه من الكد في دور العجز من حياته ، فيربي أولاده ذكورا وإنثاء ليستثنى كل منهم بنفسه متى بلغ أشده .

ومن الترتيب المطلوب أن يرتب المراء أموره الأدبية على نسبة حالته المادية ، وأن يرتب بيله العيبي لمسجد والتماعى على حسب استعداده فلا ينطول إلى مقامات لا يلفها .

• • •

ويكثر الكواكبى من الخوض على التثب في التعيين في بعض صفاتهم القومية وأشرفها في تنديده صفات الولع بالمعرفة واللفظة الاجتماعية والاستعداد بالقوة والمنعة ، ولكنه يشفق من الإفراط في الإعجاب بأهم الغرب أن يتول إلى استكافة الشرقيين أمامها وفقدانهم لثقة بأنفسهم في معاملتها ويعيب على غالب أهل الطبقة العليا من الأمة كما قال بلسان السيد الفراقى أو بلسانه هو في أم القرى : « إنهم يتفهمون أنفسهم في كل شيء ويتفهمون عن كل عمل ويحجمون عن كل إقدام ويتوقفون الخفية في كبل أهل ، ومن أفصح آثر هذا الخور نظرهم لكحال في الأجانب

وإتباعهم فيها بشئونه رقة وطرافة وتعدنا ، ويتخذون لهم فيها يشوشه به كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به ...

وهو على إعجابه باستحسن من أخلاق الأوروبيين القومية لا يرى أنهم ملغوا من لميوب في جملة أخلاقهم القومية وبأخذ عليهم كما قال في باب الاستبداد والأخلاق من « طابع الاستبداد » أنهم حادبون و « ذن » الغربي حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق حنده شيء من المبادئ التالية والعوظف الشريفة التي نقلها له مسيحية الشرق . فالجوراني مثلا يجاف الضح يرى أن المنصور الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال . فيرى يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال ، ولا يثني مطبوع على العجب والعيش يرى العقل في الإطلاق والحياة في خلق الحياة والشر في الزينة واللباس والعز في الثقل على الناس .

وهذه هي المآخذ التي يبالغون عند الشرقيين كما قال بعد ذلك : « إنهم أديبون بقلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والإصفاء للرجس والرحمة ولو في غير موطنها وتلطف ولو مع الخصم والقوة والتمعة والجاهل في المستقبل . وفلا ليس في شأن الشرق أن يجوز ما يستحبه لغربي وإن حرزه لا يحسن استناده ولا يقوى على حفظه .. وبهم في شأن ظله المستبد فإذا زال لا يترك فيمن خلفه .

بل هو يرى للشرقي رسالة باقية في هداية الإنسانية وإنقاذها من طغيان الحضارة المادية التي ينادي فيها الغرب ويوشك أن يردى في هاربة من عوائلها لا نعمة له مما يغير مدد روحاني من الشرق كالمدة التي تلقاه الأمم من أديانه الأول ، ويناشد الغرب في ختام كتاب طابع الاستبداد فيقول : « يا غرب ! لا يحفظ لك الدين خبر الشرق إن دامت حياته بحريته ، وإن فقد الدين يهددك بالحرب القريب » ويستمرمل سائلا وكأنه ينظر بلحظ الغيب إلى طغيان ملأه الدم الجحود : ماذا أعددت للتوضيين إذا صاروا جيشاً جراراً ؟ هل تعد لهم المواد

تبرکات و عبادت و غیره در این کتاب مذکور است.

• • •

۱۰۰

[illegible][illegible][illegible]

• • •

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

- 41 -

‘**ကံ**’

[illegible][illegible]

‘人’字，‘人’字。

הנהגתו של המלך היתה נכונה ונבונה

جن:

بسم الله الرحمن الرحيم

من حیثین جہاں ہمیں جہنم میں لے کر آجائے گا۔

ה'תש"ח

ה'תש"ח, י"ח

הַיְיחֲסָדִים הַלְלוּ אֶת ה' מִכַּתְּלֵי הַיָּם וּמִכַּתְּלֵי הַרְרֵי הַיָּבֵשׁ

ଏହି ସମସ୍ତ କାର୍ଯ୍ୟ ସମ୍ପାଦନା କରାଯାଇଛି ।

مكة المكرمة في شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٠ هـ

REF: 175

הַיְהוָה יִשְׁמַר אֶת צְדָקָתְךָ יְהוָה יִשְׁמַר אֶת צְדָקָתְךָ

... ..

የገቢት ስራ ስለገባችሁ ለሰላም ለብሩክ ለገቢት ስራ ስለገባችሁ ለሰላም ለብሩክ

የጥንታዊ የሕይወት ቅርፅ ስርዓት :

[illegible]

و یجب علی صاحبها ان یتواکفوا علی الله و یحذروا ان یتفرقوا

الحمد لله الذي جعلنا من عباده المخلصين

خداوند یکتا و یگانه است و هیچ شریکی ندارد. او را هیچ چیز نمی‌تواند شکست دهد و هیچ کس نمی‌تواند او را شکست دهد. او را هیچ کس نمی‌تواند شکست دهد و هیچ کس نمی‌تواند او را شکست دهد.

תחתיו, ויהיה זהו המעשה הראשון.

၁၈၈၆ ခု၊ ဇူလိုင်လ ၁၀ ရက်

१५५०

- 41 -

١٠- أن يظهر البشعة على الضمائم والغيرة على الدين والملاحة بالوطن .

١١- أن يتباعد من مقاربة المستبد وأعوانه إلا بمقدور ما يأمن شرم إن كان معرضاً لذلك .

قال بعد سرد هذه الصفات : « فن يبلغ سن الثلاثين - فألقى - حائراً على الصفات المذكورة يكون قد أعد نفسه على أكل وجه لإحراز ثقة قومه ... وهذه الثقة بفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز » .

وربما بالغ الكواكبي في التوصية باجتناب المظهر الذي يثير الحسد وبغري بالمقاومة في دور الدعوة والإقناع وتأليف الأنصار والأعوان ، بل قد يبلغ من الحرص على ذلك أنه أثبت في خانة ثم الثرى لمجمل « مظهر الجمعية المحزول مسكنة ولوصاها في التغطية شائعة والأربعين » ألا تقوم ولا تقابل إلا بأساليب الصبيحة والموعظة الحسنة وتلاصف وتجاويز جهلها من يعادى مقاصدها .. إلا في الضرورات » .

إلا أنه لا ينكر على المصلح الذي انقاد له زعامة الأمة أن يدفعها دفعاً إلى التقدم والتجبر . لأنه يترور غير مرة أن بلاد الشرق « فقد السراة والمهارة » فلا أمير عام سيم مطاع يسوق الأمة طوعاً أو كرهاً إلى الرشاد ، ولا حكيم معترف بالمزية والإخلاص تنادى له ذمراء والناس ، ولا تربية قوية ينتج منها رأي عام لا يطرقه تخاذل وانقسام .

...

التربية المدرسية

تنظيم التربية المدرسية عمل يستغل به خبراؤه المختصون بالإشراف على إدارة المدارس وتخصيص منهج التدريس ، وفي وسعهم أن يحصروا المعلمين والتعلمين وينقسموا للمعد التربية مراحلها التي تكفي لأوقات الاستعداد وأوقات التكملة والانتهاء ، على حسب الحاجة المتجددة إلى كل صنف من أصناف الدراسات .

وربما بدأت أعمال هؤلاء الخبراء عند نهاية العمل السابق الذي يتصدى له الإمام المصلح لحث الأمة على فتاح المدارس وتعليم الأبناء ، فليس تصنيف المواد المدرسية من عمل الإمام المصلح في دور اختياره والامتناع والحض على طلب العلم كنه ، كنهاً ما كان .

ولكن الإمام الكواكبي قد نشأ في عصر نفوذ مريج ملتبس المظاهر باختناق كثير البقايا من الماضي والاطلاع من المستقبل ، فاضطر إلى مهمة من مهام « التخليص » بين البقايا والاطلاع ووجبت عليه المشاركة في « تصنيف العلوم » المدرسية ليعز على الأقل صفة العالم الجدير بمكانة الإرشاد والهداية وصفة العلم شيء يفضل في رسالته الأولى وهي كفتاح الاستعداد والدعوة إلى الحرية .

وكنتك كان العلم عنده حسين : علم يطمئنه إليه الاستعداد ولا يخوف عقابه . ولم يعرف به الإنسان « أن الحرية أفضل من الحياة » وينزل به « النفس » عزها واشرف وعظمته ، والحقوقي وكيف تحفظ ، وانظم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذاتها .

...

... ..

... ..

...

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

ကိစ္စအားလုံးကို - နှစ် ၁၅ - ကျော်အတွင်း

• • •

[illegible][illegible][illegible][illegible]

• • • • •

[illegible]

וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

• • •

۱۸۴۰

אשר יצאנו ממצרים ויהי ביום הזה
אמר יהוה אל משה ואמר
לפי שהעם הזה לא יאמין בי
ועל כן אומר לך כי כל אשר
תבקש עשה לפני ה' ואל תחשב
כי אתה חכם ואתה נבון כי
אתה יודע כי אתה רואה כי
אתה שומע כי אתה טועם כי
אתה מגיע כי אתה בא כי אתה
יוצא כי אתה נכנס כי אתה
עולה כי אתה יורד כי אתה
קובץ כי אתה מפזר כי אתה
מגדל כי אתה מנצל כי אתה
מפיל כי אתה מעלה כי אתה
מטהר כי אתה מכליל כי אתה
מקדש כי אתה מקדוק כי אתה
מקדוק

- 641 -

[illegible]

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

... וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְיִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל

ثقة بعضهم ببعض ، فينتج من ذلك أن الأسرى محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة ، يعيشون مساكين يائسين متواكلين متخاذلين متعاضدين متناشدين . والمائل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً وبتبع أثر قول رسول الله القائل : اللهم ارحم قومي فإنهم لا يعلمون ...

ولا بناء للاستبداد إذا تعود الناس الاشتراك في الرأي والتعاون على العمل . فلي هذا الاشتراك يقوم نظام الرعايا الأحرار في الأمم التي سقط فيها حكم الاستبداد وغلته حكومة الأمة للأمة : « فيه سر الاستمرار على الأمان التي لا تنق بها أحوال الأفراد . نعم . الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم المتقدمة : به أكلوا ناموس حياتهم التومية . به ضغطوا نظام حكوماتهم . به قاموا بعظام الأمور : به نالوا كل ما يغبطهم عليه أسرى الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوقون إليه . ولكن كل منهم يظن الغبن لشركائه بانكلاه عليهم عملاً واستبداده عليهم رأياً ، حتى صار من أمثالهم قوهم : ما من متفنين ولا وأحلم مغلوب ... »

ويرى الكواكبي أن حكم الاستبداد قد استفحل بين المسلمين بعد إهمالهم حياة الجماعة والمشاورة بين الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن سبب الفتور الذي أصابهم - كما جاء بلسان خطيب من « خطباء أم القرى » هو فقد الاجتماعات ومناوصات ... إذ نسوا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وبسبب السجدة والجمعة والصلوة والعبادة ... عرفوا من أهل السياسة - يتعرض لشئون العامة ، كما أن علماءهم صاروا يسترون جهلهم بمجملهم الحديث في الأمور العمومية والخوض فيه من الفضول والاشتغال بما لا يعني ، وإن بيان ذلك في الجوامع من لغو الذي لا يجوز . وربما اعتبروه من الغيبة والتجسس أو السعي بالفساد فسرى ذلك إلى أفراد الأمة وصار كل فرد لا يهتم إلا بخويصة نفسه وحفظ حياته في يومه . كأنه خلق أمة واحدة ... »

...

ولما فرغ من قصة الأخلاق بقيامه الدائم إلى قطبين متقابلين : أخلاق.

الاستبداد وأخلاق الحرية ، أو أخلاق لمصلحة الحاكم المطلق وأخلاق لمصلحة الرعية ، نظرياً تقسيمها درجات على حسب المصلحة التي تنبئ بها ، وأنواعاً على حسب نصيبها من الشرف والرغبة .

فالمصالح التي تحققها الأخلاق هي مصلحة الإنسان نحو نفسه ، ومصلحته نحو غلته . ومصلحته نحو قومه ، ومصلحته نحو الإنسانية . وهذه هي الأخلاق العليا التي تسمى عند الناس بالناموس .

ثم هي نوع « الحصول الحسن الطبيعي كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة ... والحصول الكمال التي جاءت بها الشرائع الإلهية كتحصين الإبر والنعير وتقيح الرنا والطبع ... ويرجع في هذا النوع - لا تترك كل دخول حكمة تميمه فيتمثل المنسوس للدين احتراماً وخوفاً ... ولتوقع ذلك الحصول الاعتدالية وهي ما يكتسبه الإنسان بالرواية أو التربية أو العفة ... والتدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشترك وتشتبه ويؤثر بعضها في بعض نعيم مجموعها تحت تأثير الألفة الجديدة ... أو تتركيب حسب يصدفها من استمرار الألفة أو انقطاعها ... فالقاتل - مثلاً - لا يستنكر شيعته في المرة الثانية كما استنبحها من نفسه في الأولى ، وهكذا تحت الجرم في وده حتى يحل إلى درجة لتلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له . كذا هي حال الجبارين وغائب السياسيين الذين لا ترتج في قلوبهم عاطفة راحة عند قتلهم أحراراً أو أحراراً يناديهم السياسة إمرافاً بالسيف أو إزهاقاً بالقتل .

وهنا يثور الأمر إلى ملوئ الاستبداد في إفساد الأخلاق . لأن ألفة الأحوال العامة تبني وتنطبع انطباع المادة في تلك : « ويكتبه مفسدة لكل الخلق الحسن الطبيعية والشرعية والاعتدالية تلبس بالرياء اضطراباً حتى باله ويصير مكة فيه فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه ... »

...

ولا يفوت - ونحن نحتم القول في آراء الكواكبي - أننا أمام برنامج عمل « يصدق عليه وصف « البرنامج » قبل أن يصدق عليه وصف فلسفة

...
...
...

...
...
...
...
...

...
...
...
...
...

...
...
...

...
...

پیشینه و پیشرفت

...

...
...
...
...
...
...
...

يقول فيه إنه « كلمات حق وصيحة في ود ». إن ذهب اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالآوتار .

ومن فتنه بفعل الدعوة المتقدمة قوله في مقدمة أم القرى « أيقنوا أيها الإخوان أن الأمر ميسور وأن ضواهر الأسباب ودلائل الأقدار مبشرة أن الزمان قد استلار وتبأ في الإسلام أنصب أحرار وجبلاء أبرار ، يعد واحدكم بألف وجسمهم بألف ألف . فقرة جسمية منتقلة من هؤلاء البلاء كافية لأن تخرق طيل حزب الشيطان وتستريحى جمع الأمة مهما كانت في رقاد عميق وتعودها إلى النشاط وإن كانت في فتور مستحكم عتيق . . . لأن الجمعيات المنتظمة ينشئ لها الباث على مشروعاتها عمراً طويلاً يبقى بما لا يبقى به عمر الواحد افراد وتأتى بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يسدها الرذذ . وهذا هو سر ما ورد في الآثار من أن يد الله مع الجماعة ، وهذا هو سر تكون الجمعيات تقوم بالعضائم وتأتى بالعنائب ، وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية ، وهذا هو سر انجاح في كل الأعمال المهمة ، لأن سنة الله في خلقه أن كل أمر - كلياً كان أو جزئياً - لا يخلص إلا بقوة وزمان متناسلين مع أهمية ، وأن كل أمر يحصل بقوة قليلة في زمان طويل يكون أحكم وأرسخ وأطول عمراً مما إذا حصل بمزيد قوة في زمان قصير . وكلنا يعلم أن ما لنا أعظم من أن يبقى بها عمر إنسان لا ينقطع أو مسلك سلطان لا يطرد أو قوة عصبية حضرية حقة تغور سريماً وتغور سريماً . . . »

قال : « ولا ينبغي الاسترسال مع توهم إلى أن الجمعيات بعرضية في ظرفنا لنيل السيادة فلا تعيش طويلاً - ولا سيما إذا كانت بقيرة - ولم تكن كتابات الأكاديميات ، أى الجمع العلمية ، تحت جمالية رسمية ، بل الألق بالحقبة والحرم الإندام والنبات وتوقع الخبر إلى أن يتم المطلوب . »

لهذه الوسيلة - وسيلة الكلمة الحية والدعوة المنتظمة - كافية صالحة لتحقيق غايتها ، مفضلة على الوسائل الأخرى التي قد يستعملها الدعاة لقلب الدول وإقامة نظم بقيادة الشعوب من حال إلى حال .

فإذا انتشرت الفكرة بين قادة الرأي في البلاد العربية فتبدت تحققت نتيجة لا شك فيها ولا حاجة إلى نتيجة أكبر منها ، وهى تصيب كل حكم عرب يخالف الدعوة وإخراج الدولة الحاشية في بلادهم سواء عولت في حكمها على التعارض معهم أو اعتملت على السطو وحدها لإخضاعهم وتطويعهم ، وكلامه مطلب حسي لا يطول عليه صبر الحاكّم الأجنبى ولا تطول فيه الحكومين .

أكان الكواكبي يزهد في الثورة الدموية أو يحجم منها خوفاً من أنستوما؟ كلا . . . فتد فكر طويلاً في هذه الثورة وبحت كثيراً في أحوالها كما يظهر من استقصائه لجميع هذه الأحوال في خاتمة كتاب طائع الاستبداد . فقرر في خله أن تدبير هذه الثورة قبل إعداد العدة لما بعدها خطئ في الرأي ومنهية لجهود ومجازفة بالنتيجة المرجوة ، وقرر في خله - مع هذا - أن العامة لا يتررون في الأغلب الأعم إلا لأسباب مصورة قلما تجتمع في وقت واحد .

« فلا يثير غضبه على المستبد إلا عقب مشهد دموى مزلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لتأوممه ، أو عقب حرب يفرج منها المستبد مغلولاً . . . أو عقب تظاهر المستبد بإهانة الدين . . . أو عقب تضيق شديد عام مقاضاة مال كثير لا يتيسر إعطاؤه . . . أو في حانة عجاجة أو مصيبة عامة لا يرى فيها ثامن مواصلة ظامرة من المستبد . . . أو عقب تعرض المستبد لتأوموم العرض أو حرمة الجذوة أو تحقير الشرف الموروث . . . أو عقب تضيق يوجب تظاهر عدد كبير من النساء . . . أو عقب انقضاء عوالة شديدة لمن يعتبره الأمة عدواً للشرف . . . »

والمستبد - كما قال - لا تحقق عليه هذه المراتب مهما كان خيلاً لا يغفل عن إتقانها .

وقد كاد الكواكبي يستغنى كل سبب يثير العامة ويصيح سخطهم على الحكم لساختم على غير هدى منهم لذيتهم أو لعلل يضعهم : ويدل استقصاء الكواكبي لهذه الأسباب على طول تفكيره في تدبير الثورة العامة حيث ترجى لفائدة من نشرها ، وهى - في الواقع - لا ترجى لها فائدة قبل انضاح الخطة

التي تعقبها وتستفر عليها وقبل تعميم الدعوة إلى تلك الخطوة بين القاديين على تحقيقها : « فإن معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل ، كما أن معرفة الغاية لا تغني شيئاً إذ جهل الطريق الموصول إليها . والمعرفة الإحسانية في هذا الباب — لا تكن مطلقة ، بل لابد من تعيين المطلب والخطوة تعيناً واضحاً موافقاً لرأي الكل أو لرأي الأكثرية . . . »

ولم يكن هذا التأثير الممكن من قواعد الثورة لجهل فعل القوة العسكرية في تبديل النظم وتقويض الحكومات ، فقد كان يقول لصاحبه ومن يخدمهم بدعوته : « لو ملكت جيشاً لقابضت حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة . » وكان قصصه من البيان في هذا الحدد أن يغني به إلى ثقاته حيث لا يتثنى لإعلانه في صحافة المشورة ولا جدي من إعلانه ونشره . ومن صرح لهم بهذا الرأي : إبراهيم سليم التجار ، الذي قل عنه في مجلة الحديث إنه لو لم يكن شيخاً ، يئاً لكان قائم جيش فاتح . . .

نعم . هكذا كان ينبغي أن يفكر في تدبير الوسيلة لقلب حكومة عبد الحميد في القمطنطينية ، لأنه دعوته إلى النهضة العربية لا تغني شيئاً في محاربة السلطان القائم بالأمر في العاصمة التركية ما لم تسعده قوة السلاح . ولكنه في دعوته التي تجرد لها لا يلقى بين يديه وسيلة أنفع من وسيلة ولا يصل إلى نتيجة مرموقة أفضل من النتيجة التي يصل إليها بالكلية الحية والجماعة المنظمة ، وحسب أن يفتح لها أحد الإقاع في قومه ليسقط كل حكومة ترومهم في عزز دهرهم عن غير اعتقادهم واختيارهم . وإنما المسألة هنا مسألة وقت مقدور لا شك بعد انتفاضه في الغاية التي تتول إليها .

• • •

وأيما كان القول الفصل في كفاية الدعوة وحدها لاستقلال العرب بالحكم الذاتي أو بالانفصال من الدولة فالخاتمة التي لا خلاف عليها أن الدعوة أترم وسيلة من وسائل العمل للنافع حين يكون المقصود إقناع أصحاب الحق بمنهم وتميز الثقة بأنفسهم وبإمكان النظر بآمنيتهم ، قل التغلب بوسيلة من الوسائل على غاصب الحق أو المعارض فيه . فإن زوال القوة العاصية قبل

انتفاخ أصحاب الحق عليه وعلى الغاية من إدراكه قد يفتح أبواب تحفة على مصاريها ويهد الطريق لغاصب طاريء بعد غاصب معزول .

وقد الخلاف في مسألة الخلافة وكتابة الدعوة لإقامتها على العترة التي تداولها آراء الكواكبي بالسنة المتكلمين في أم القرى ، وبخاصة حين يكون الخليفة إماماً روحياً محدود السلطان في شؤون الدولة . فليس للسلطان العثماني في هذه الحالة وجه من الوجود لإبطال بيعه الخلافة بالقوة العسكرية نواستطاعها مع جميع الأمم الإسلامية ، المستقلة وغير المستقلة ، وهو لا يستطيعه ولو تيات له السرعة الشرعية لاستخدام القوة العسكرية .

عن أن الرجوع في تقديرنا أن الكواكبي إنما أراد شيوع فكرة بين المسلمين ببطالان دعوى الخلافة العثمانية ، لأن بقاء هذه الفكرة عن شيوعها في أعام يومئذ قد يشل حركته ويضعف حبه ويغيبه للناس كأنه محارب للخلافة الإسلامية ، وقد للفرقة عليها من جانب الدول الاستعمارية ، لذا ارتفعت هذه البنية فهو قين أن يكسب الرأي العام من صفة وأن تبقى دسئس الدول التي لا يميها أن تنبها بين الأمم لتابعة لما إيجاباً لسماء ، بل لعل هذه الدول ترسب بالخلافة المنزلة عن الدولة وتفضلها على الخلافة التي تعرضها في ميدان السياسة الدولية

• • •

ومن لمن يترجم الكواكبي أن يثبه إلى رأيه عن الدعوة في مقام حرج من مقالات الترجمة له وتقديره على حسب أعماله ومساغبه .

وقول إنه مقام حرج لأنه مقام النظر في النيات الخفية التي يتوقف عليها الشيء الكثير في موازين التقدير والحكم على الأعمال والأقوال ، وهي على لزومها لاستيفاء بحث المترجم وتصحيح نقده عرضة للمازعة والمذلة خفية المسلك على من يحسن النية وعلى من يسيئها في تقدير العقيم .

لم أكن قد لقيت الكواكبي ولا رأيت في زيارة من زيارته للقاهرة . لأن زيرني الأولى كانت بعد وفاته بشهور .

أواسط القرن التاسع عشر من تنفعة دعوة الكواكبي بشروطها الحرة في
 وأم القرى ، سواء كانت دعوة إلى الخلافة أو إلى الدولة . ولكن دعوته
 - تلك - بشروطها من ناحية الدين وناحية السياسة تنهى إلى غاية إذ ضاهم
 الناس على شروطها واتخذت بيعة العثمانيين في بلاد العرب ، ثم قامت الجامعة
 الإسلامية بعد ذلك على أساس غير أساسها المرسوم في خطط عبد الحميد . . .
 يكفي أن يقال إن الأمة العربية تبحث عن إمام عربي يتبايع بالخلافة الروحية
 ليبلغ الكتاب أجله ، وتصبح المسألة بعد ذلك مسألة أسماء ، وأيام .

• • •

ولكنني لقيت من عرفوه وصاحبوه في بعض مجالس العالم الإسلامي
 « مسود سالم بك ، فبا أذكر ، وهو من أقاموا زمناً في باريس لنشر الدعوة
 الإسلامية والرد على أقوال الصحف والساسة في المسألة الشرقية . ومن هؤلاء
 الذين لقوه حيث مكنت زمناً بحي العباسية - شيخ متوقد الفطنة متفهم لأحوال
 الخرماء الدينيين خاصة فيما يتور حول الخلافة بين القاهرة والقسطنطينية وبين
 المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حمة الأقلام وأقطاب الدين من
 المصريين وكان حتى لعباسية وما جاوره في ذلك العصر ملتقى الكثيرين من
 زوار قصر النجاشي وقصور الرؤساء المعزولين وأصحاب الوظائف الكبرى في
 القصور الخديوية ، ومنها قصر القبة مسكن الخديوي عباس الثاني ، يومذاك ،
 وقتما يقم في سواه .

قال لي ذلك الشيخ القطان : إن أناساً من أصحاب الكواكبي كانوا إذا
 سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديوي وينهى أجرو في بلاد العرب لمبايعته
 بالخلافة تسموا وقالوا : والله ما يعمل الرجل إلا لحساب نفسه . ألا تروته
 حريصاً على الخلافة العربية القرشية حريصاً على النسبة إلى قريش في بيت
 من بيوت الإمارة ؟

ولم أعرف يومئذ موقع الصواب في هذه المظنة ولكنني قرأت كتب
 الكواكبي بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو إلى غاية طويلة الأمد
 يعلم أنها لا تتم في حياة فرد واحد ويوطن الزمان على ذلك بين قرائه وصحبه
 وهو أخرى أن يعلمهم في سرعة الانتهاز وسرعة الجزاء لركاد له مأرب
 يتعلق به ويعلق به آمال العالمين معه غير مضطر إلى التصريح بمراذه .

وكل ما يفهم من حرص الكواكبي على الخلافة العربية القرشية أنه لم
 يكن يعمل لمبايعه الخديوي عباس الثاني بالخلافة الإسلامية ، وأنه ربما استعان
 به لإضعاف خلافة عبد الحميد والانضاع بفروقه في البلاد المصرية ، ولكنه
 لا يستطيع أن يوفق بين خلافة عباس الثاني ودعوة إلى الخلافة العربية القرشية
 « الروحية » . . ولا يرى من إشاراته إلى اختلال الأمن حول الأماكن المقدسة
 أنه كان يرضح أحداً من بيت معلوم ، بل ليس بين الإمارات العربية في

خاتمة المطاف

ونتيجة الأخبار والوقائع ، وزبدة التعليقات والمعلومات ، أننا أمام حياة عظيمة ، مقدرة لعمل مسمى ، ويوشك كل جزء من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إل ذلك العمل ويتربب الوجهة التي اتجه إليها .
فليس في ترجمة الكواكبي صنعة لا تنظم في كتاب السيرة كما ينظم الفصل المنتظم في السفر المجموع .

نشأته في حلب منفي المفاقر بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أو بحس التبع بين أصباب العالم المعمور .

ويعيش في منتصف القرن التاسع عشر ، عصر النهضة القومية والمطامع النولية ، وقرصة التحرف والصراع في ميادين العلم والخلق والثروة . بين الغرب المستبد بأبوت والشرق الذي لا أهبة له غير الخوف والرجاء .

وأسرته التي نبت منها في منتهى الجاه والرفاسة ، ووظائفه التي تشتر فيه كوامن العصب وتدفد كل يوم مصطدم الكرامة بين إنسان وإنسان ، وبين قوم وقوم ، وبين فكرة وفكرة ، وبين مصير ومصير .

كل جانب بأوى إليه كآته هائف بناديه : كمن عربياً للعرب ولا يهولنك بعد ذلك ما يكون ، بل يكون إلا الخبر ، ولن يكون إلا خيراً مما أنت فيه .

وتمت حياة الزجل ولم تتم رسالته في خدمة قومه ، ولكنها كانت كذلك رسالة مساة ، لو أطلع على عرائنها بعد مشوات معلودات لرضى عنها واطمأن إلى عواقبها ، وعلم أنه قد أراد ما يريد الزمن ، أو أنه قد سبق الزمن إلى ما أراد .

وحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإتصافاً لمقصده أن يسبق

لزم من وأن يحسن السبق إلى مجراه . وأن يأتي بالفكر المحيرون من قصائد الغيب فبشيء فيه على هدى قبل أن تنبأ إلى شمس النهار .

وهكذا نظر الكواكبي إلى الغيب فيما اختاره من وجهة العمل لفد المحبول كأنه اليوم المعلوم .

وضع قضية الإصلاح في موضعها ، وأصاب من حيث أخذ الدعاة في زمنه ، بين مخلصين منهم ومدعين .

لم تكن قضية الجامعة العربية عند الكواكبي دعوة تناهض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

كلا . ولا كانت « الخلافة الإسلامية » أمامه هدفاً يرميه ويعدديه .

وكل ما في الأمر أنه نظر إلى لقب الخلافة في بني عثمان لم يعلق عليه مستقبل المسلمين ولا مستقبل العرب ولا مستقبل الترك أنفسهم ، وهم شركاء بني عثمان في الدولة والسلالة .

لم يمتص على وفاته ربع قرن حتى كان نواب الأمة التركية في ثوب مجلس لم ينشأ حتى تمثلها قد عرفوا هذه الحقيقة كما عرفها الكواكبي وسجلها في أول صفحة من صفحاته . فأعلنوا عزل الخليفة قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، ثم اجتمعت وفود العالم الإسلامي من نحو خمس عشرة أمة في القاهرة بعد ذلك بسنة ، وانصرفوا وهم لا يحسون أن العام الإسلامي حينئذ يملك الباب سيناً سن .

ومله المعجزة . .

هذه هي آية العفوية التي تلهم صاحبها ما يجب اليوم كثر أو بحسب في الغد حنيفة من حقائق الإيمان والحكمة ، ومصلحة من مصالح الواقع والعيان .

كان الكواكبي في عرف قومه من الجاهلين أو المتجاهلين علو الجامعة الإسلامية ، علو الخلافة الإسلام ، علو النفس وقومه ، علو الإخوانه في الدين من الترك العثمانيين .

(الكواكبي)

ثم ارتفع حجاب من حجب اليب فلم يبق أحد يخالف ذلك لعدو المين
في دعوة دعاها أو في لية خفية انتراها ، لأنه صنع المعجزة بعقريته الملهمة ،
وانما العبرية الملهمة من آيات الله .

ولم يزل سبق الزمن كرامة العبرية التي من أجلها استنحت الذكرى
بعد زمانها واستنحت الإعجاب من كل ذي طبع قديم وكل ذي سلفية
إنسانية تحس أنها ذات نصيب من عظمة الإنسان . ولكن الإعجاب الصادق
البعيد يقضي إلى تحية العظيم مزيداً من العلم بتعلته ومعدن العبرية فيه ،
وما كان مبلغ القدرة في العبرية الكواكبية أنها بجور كبير يريه مدى السنين
حيث يقصر النظر حوله عن مدى الأيام ، ولا كانت قدرته كالفتاح الذي
يلدبر لوالب الزمن إلى الأيام عشرين درجة أو أربعين سنة أو لحسن ...
هذه قدرة لو صحت على هذه الصفة لكانت إلى قدرة الصناعات أقرب منها إلى
قدرة الفكر والضمير . وانما كانت عبقريته الكواكبي ملكة نادرة تلاقى
فيها ففيلة العقل اثاقب وففيلة الضمير الأمين .

كان مقتدر أبعقله على التمييز بين الأشكال والعاديين وبين الخفايا والأعمال
وكان خبيراً بالفرقة بين عوامل القاء والبضة في الأمم وبين مرايم السمب
والرغبة في الدول والحكومات ، وكان يدرك موقع الخطر وموقع السلامة
للاجهل ذهاب لقب ولا يئس من مصير أمة تأخذ بأسباب الحياة .

وكانت هذه ففيلة العقل الثاقب في هذه العبرية الملهمة .
أما ففيلة الضمير الأمين فيها فهي التي أتت عليه أن يكتم ما يحتم وأوجبت إليه
أن يعمل بما جندى إليه ولا يتكتم على عقبيه .

والدنيا لا تبغض إلا عجباها على عبقريته تغرد بالفكر السديد ولا عبقريته
تغرد بالخلق الحميد .
ولكن الجدير بالإعجاب والتشريف معاً عبقريته يلتقى فيها مداد الفكر
وشجاعة الضمير .

محتويات الكتاب

صفحة	محتوى
٣	سيرة مهددة
	الكتاب الأول
٩	مدينة
١٩	العصر
٢٨	أسرة الكواكبي
٣٩	النداء
٤٥	ثلاثة الكواكبي
٥١	أسلوب الكواكبي
٦٢	المؤلف
٦٥	الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية
٧٦	أم القرى
٨٦	طابع الاستبداد
١٠٢	شخصية مكونة
١١٦	في مصر
	الكتاب الثاني
١٠٧	برنامج إصلاح
١٢٢	الدين
١٤١	الدولة
١٤٨	النظام السياسي

يتكفل علماء الإسلام بنشرها العمل بها أو لفائدة المقلدين على تفاوتهم في القدرة على الاستفادة من المطالعة والمراجعة .

فينبغي للعالم المجتهد :

« أولاً : أن يكون عارفاً باللغة العربية المصرية القرشية بالتعلم والمزاولة معرفة كافية لفهم الخطاب لا معرفة إحاطة بالمفردات ومجازاتها وقواعد الصرف وشواذه والنحو وتفصيلاته والبيان وخلافاته والبديع وتكلفاته مما لا يتيسر إتقانه إلا لمن يفتى ثلثي عمره فيه ، مع أنه لا طائل تحته ولا لزوم لكثرة إلا لمن أراد الأدب .

« ثانياً : أن يكون قادراً كتاب الله تعالى قراءة فهم للمتبادر من معاني مفرداته وتراكيبه مع الاطلاع على أسباب النزول ومواقع الكلام من كتبها المدونة الأخوذة من السنة والآثار وتفسير الرسول عليه الصلاة والسلام أو تفاسير أصحابه عليهم الرضوان ، ومن المعلوم أن آيات الأحكام لا تجاوز المائة والخمسين آية عدداً .

« ثالثاً : أن يكون متضلعا في السنة النبوية المدونة على عهد التابعين وتابعيهم أو تابعي تابعيهم فقط . بدون قيد بمائة ألف أو مائتي ألف حديث ، بل يكفيه ما كفى مالكاً في موطنه وأحمد في مسنده ، ومن المعلوم أن أحاديث الأحكام لا تجاوز الألف وخمسمائة حديث بدأ .

« رابعاً : أن يكون واسع الاطلاع على سيرة النبي ﷺ وأصحابه وأحوالهم من كتب السير القديمة والتواريخ المعتبرة لأهل الحديث كالحافظ الذهبي وابن كثير ومن قبلهم ، وكابن جرير وابن عثيمين ومن قبلهم كذلك ، والزهرى وأضرابهم .

« خامساً : أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التلميسيين والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيلسوفية وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزعات المعتزلة وإغريات الصوفية وتشديدات

الخواارج وتزويجات الفقهاء المتأخرين وحشويات الموصيين وتزويجات المرائين وتمزيقات المدلسين .

وعلى العلماء المجتهدين أن ييسروا لكل من المقلدين أن يأخذ من أحكام الدين ما هو أهل لفهمه حسب طاقته . فيفسر المسائل وعلى مراتب في تون مخصوصة فيعقدون لكل مذهب من المذاهب كتاباً في العبادات ينقسم إلى أبواب وفصول تذكر في كل منها القرائن والواجبات فقط . وتنصوئ نصوصها الشرائط والأحكام بحيث يقال إن هذه الأحكام في هذه المذاهب هي أقل ما تجوز به العبادات ، ويعتدون كتاباً آخر ينقسم إلى عين تلك الأبواب والفصول تذكر فيها السنن بحيث يقال إن هذه الأحكام ينبغي رعايتها في أكثر الأوقات . ثم كتاباً ثالثاً مثل الأولين تذكر فيه سنن الروايات بحيث يقال إن هذه الأحكام رعايتها أولى من تركها . وعلى هذا الأسس يوضع كتاب للمنتهيات ينقسم إلى أبواب وفصول تعد فيها المكروهات والكبائر وكذا الصغائر والمكروهات ، ومثل ذلك تقسم كتب المعاملات عن طبقات من الأحكام الإجماعية أو الاجتهادية أو الاستحبابية . وبمثل هذا ترتيب يسهل على كل من العامة أن يعرف ما هو مكلف به في دينه فيعمل به على حسب مراتبه وإمكاناته . وبهذه الصورة تظهر سحنة الدين الخفيف (١) .

...

ويؤخذ من جملة الشروح والمساجلات في كتابي « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » أن الكواكبي بهم أشد الاهتمام بإغلاق الباب على طوائف الوسطاء المحترفين في المسائل الدينية ، إذ لا منقذ لوسطاء الوسطاء في دين يعرفه المجتهدون من أتباعه في كل زمن . ويعرفه المقلدون على بساطته الأول مع السؤال عن الدليل الواضح عند تباين الأمر عليهم بين المباح والمنوع .